14 me Année No. 685

Lundi—19—8—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨٥ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٢ رمضان سنة ١٣٦٥ — ١٩ أغسطس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

معجزة تولد وتموت ... !

للأستاذ عباس محمود العقاد

تسامع الناس فى العالم العربى بقصة « الانسان الغزالى » الذى وجده الصيادون فى بادية الشام منذ أسابيع

ولا نعيد القصة ، ولكننا نسجل الأعاجيب التى انطوت عليها لو صحت روايتها الأولى :

وهى أن ذلك الانسان الغزالى — وهو طفل فى الثانية عشرة — كان يسبق السيارات ويعدو مع الغزلان بسرعة ثمانين ألف متر فى الساعة ، ونزل بعضهم بهذه السرعة إلى خمسين ألفاً وهى ليست بالشىء القليل ؛ لأنها خمسة أضعاف السرعة التى يستطيعها العدّاء الرياضى بعد المرانة العلمية والاجتهاد الطويل .

والأعجوبة الأخرى أن هذا الطفل قد تبنته ظبية فى البادية وتعهدته بالرضاع والحضانة حتى نما وكبر وأصبح يهيم معها فى البادية كما يتبع الخشف أمه فى أسراب الفلاة .

وتمت الأعجوبة بوصف شفتى الطفل ووصف قدميه . فان بعضهم أبى إلا أن يجعلها « حيوانية » فى كل شىء . فالشفتان مشقوقتان لا تتكلمان ولكن تبغمان ... والقدمان ظلفان أو أشبه الأقدام بالأظلاف .

وأسرع الناس إلى التصديق ، وأسرع المعقبون إلى الاضافة والتعليق ، وأوشكت أسطورة الأسبوع أو الأسبوعين أن تفوق فى الغرابة أساطير المئات والألوف من السنين .

ولا عجب فيما قيل من أن الطفل كان يأكل الحشائش والأعشاب ويستطيبها ، وأنه ظل فى المستشفى الذى نقل إليه معرضاً عن الطعام الذى يأكله الآدميون . فان الآدميين يأكلون ألواناً من العشب والخضر فى الحاضرة ويكتفون بها عند الضرورة وقد يستطيبونها ويكتفون بها لغير ضرورة .

ولكن العجب كل العجب فى تلك السرعة المزعومة ، وفى تبنى الحيوان للطفل الانسانى بغير إرشاد وتدريب . فقد يحدث هذا برياضة الحيوان عليه زمناً يطول أو يقصر ، ولكنه لا يحدث فى البادية من حيوان بين قطيع يظل وحده متكفلا بالرضاع بين سائر إخوته . فأما إذا كان القطيع كله مشتركا فى الرضاعة على التناوب فذلك أعجب ما روى من ضروب الكفالة الحيوانية بالاجماع .

وتساءل المعنيون بالرياضة عندنا عن السر فى تلك السرعة وهم بين مصدق ومكذب ، فقال بعضهم : لعلها غريزة الجماعة الحيوانية تسرى بعدوى الملازمة من الحيوان إلى الانسان !

وقال غيره : لعل السر فى الحشائش والأعشاب التى قصر عليها الغلام غذاءه . فهى على ما يظهر أصلح لمرونة المفاصل والعضلات من اللحوم والأغذية المطبوخة التى يأكلها الرياضيون !

والواقع أن اللحوم لا تعوق آكلها عن العدو لأن كلب الصيد من أسبق الأحياء عدواً وأصبرها على الجرى الطويل ،

ولأن العرب كلن فيهم عداءون لعلهم لم يأكلوا شيئاً غير اللحوم والألبان ، وإن أكلوا الحبوب والخضر فنى الندرة بين الحين والحين .

ونعرف فى أعلى السودان قبائل قد اشتهر أبناؤها بعبور الصحراء ، أو — المتمور — كما اشتهروا بالجلد على الجرى والركوب وهم يأكلون اللحوم ويعافون كل « مُلاح » أو كل خضر مطبوخ معالج بالملح على الطريقة السودانية . ومن كلام شاعرهم يفتخر :

« ولا نشرب المدام نسكر ولابنا كل الملاح لاخضر »

وفيما بيننا أمثلة غير قليلة على السباقين من آكلى اللحوم أو الذين لايصومون عنها على الأقل لغرض من هذه الأغراض .

فليس فى الظنون والأوهام — فضلاعن الحقائق والمعلومات — تفسير صالح لتلك الأعجوبة المزعومة أو تلك المعجزة التى شاء الله أن تصاب « بالسرعة » فى الزوال ، وهى سرعة لا تؤذن بالجدال

فبينما الناس فى هذا التساؤل إذا بمندوب المصور فى بيروت يزور الصبى فى مستشفى « ابن سينا » الذى نزل فيه بدمشق فلا يلاحظ عليه شيئاً من الشذوذ ، وقد ابتسم الصبى له وأظهر له قدميه فلم تكن بهما خشونة مستغربة ؛ بل كانت لهما نعومة كنعومة أقدام الأطفال . وعلم المندوب من الطبيب « أن الصبى مر بالدور العادى فى طفولته ، وأن أمه أرضعته حتى فطمته ، وأن قصة رضاع الغزالة وهم وخرافة » .

وقد فسر مدير الصحة العامة بدمشق هذه الحادثة بأن الصبى قد تاه فى الصحراء ، وربما تعلق بسيارة وصلت به إلى الموضع الذى وجد فيه ، أو ربما خرج فى صحبة بعض البدو ثم ضل الطريق ، ولا يستدل منه على حقيقة الأمر لأن المسكين مصاب ببكم قديم ... ولعله ينطق بعد العلاج .

وهكذا ماتت الخرافة فى سرعة جديرة بموضوعها لاثقة بشأنها ، فتلقى الناس موتها بالأسف والخيبة لأنه حرمهم أعجوبة طريفة ، وهم لايشبعون من الأعاجيب حتى فى عصر الأعاجيب ، وأخصها السرعة التى يصح فيها قول أبى العلاء :

ولما لم يسابقهن شىء من الحيوان سابقن الظلالا

فهم يودون لو تنقلب الدنيا كلها أعاجيب على شريطة أن تحفظ فيها « معجباتها » ، ولا تصبح كعجائب المتنبى التى كثرت حتى لا عجائب فيها . وليتهم يجربون هذا الانقلاب أسبوعاً واحداً ليعلموا أن الوقائع والمألوفات لها « قيمة » حقيقة بالعرفان فلا يتبطروا عليها !

والظريف حقاً فى قصة هذا الصبى أننا رأينا له صورتين . فاذا هو أشبه إنسان بملامح غزال ؛ سواء فى دقة الجوارح أو فى تركيب الجمجمة أو النظرة الجفلة والوجه المسنون . فلو ظهرت خرافته فى عصر من العصور الوسطى لكانت هذه الصورة مصداقاً لكل إشاعة من إشاعات الخرافة المختلفة ، فيقول من شاء إن لبن الرضاع ينقل الشبه من الحيوان إلى الانسان ، ويقول من شاء إنه مولود غزالة بخارقة من الخوارق ، ويكون حظه من التصديق والإعجاب أتم وأعظم من حظ القائل بانتقال الملامح مع الرضاع ، بل يحق له حينئذ أن يشهر سيف التكفير على من ينكر هذه الخارقة ويشك فى إمكانها ، لأنه يستكثر تلك الخوارق على قدرة الله .

ومن خصائص هذه الحالة فى عصرنا أن تقع فى أيدى الأطباء الذين يعرفونها ويفسرونها وقد يوفقون لعلاجها ، ولكنها لو تقدمت فى الزمن لكان أكبر الظن أن تقع فى أيدى المشعوذين الذين يستغلونها ويبالغون فيها ويجدون من إشاعات الناس التى يتطوعون بها ما يزيدها ويساعد على ترويجها ... فهذا الطفل إذن قديس مبارك قد أعده الله للولاية فى البرية وحرمه النطق ليكتم أسرار الغيب ولا يبوح بها إلا بترجمان على حسب الوحى والتقدير ، وهذا البغام هو اللغة التى يفسرها الحواريون المحيطون به ولا يقدر غيرهم على تفسيرها ، وهذه الظبية — ويحضرونها يومئذ فى صحبته ! — هى أم القديس التى خصت من بين الحيوان بهذا الشرف العظيم ، ويباع شعرها بل بعرها للبركة « كأنه حب فلفل ... » أو يزيد .

وينقضى عمر الطفل وتنطوى بعده الأيام ، فاذا هو صاحب ضريح ، وإذا بالحواريين يتوارثون الأسرار ويترجمون عنه من وراء الصفائح والأحجار ، وربما بيعت ذرية الظبية بعدها — إن سمح لها مقامها القدسى بالزواج — فتغالى الناس فى أثمانها وتفاخروا باقتنائها فى الدائن والأمصار .

ومما لا ريب فيه أن ذلك الضريح الذى حيل بينه وبين الظهور لن يقل فى قداسته ولا فى استحقاقه للزيارة والتبرك وقضاء الحاجات عن ألف ضريح تمتلىء بها الآن مدائن مصر والشام والعراق وسائر بلاد الاسلام ، بل لن يقل عن ألوف الأضرحة التى يحجر بها الدجالون على اختلاف الأديان .

فالحمد لله ! لقد نجا الشرق الاسلامى من معجزة بغير معجزة ، وسلمت بلادنا العامرة بالقديسين من قديس جديد .

عباس محمود العقاد

بعد عشرين ســـــنة ...

للأســــتاذ على الطنطاوى

قلنا : قف بنا لحظة يا قطب . لقد هلكنا من التعب

قال القطب : امشوا . .

وضغط على (الميم) ومدّ (الشين) مدّةً ساخر بنا ، وأوسع خطاه فصمتنا وتبعناه مرغمين

وعدنا نمشى فى هذه البرية الواسعة ، وقد انتصف الليل وغاب القمر ، واحتوانا الظلام بسكونه الموحش وسواده المطبق ... وثقل علينا هذا الصمت ، فقال القطب : غنّوا ...

وحاولنا أن نغنى كما كنا نغنى فى أول الليل ، ولكن التعب والوحشة والنعَس ، كل أولئك كان يحبس أصواتنا ويمسك ألسنتنا ، تخرج الصوت ضعيفاً متقطعاً ثم يهبط حتى اختنق ، ورجعنا إلى الصمت ...

وتجسّمت وحشتنا ، حتى كانت الجبال البعيدة تظهر لنا فى ظلام الليل كأنها أشباح الرعب ، والأشجار أمثال العفاريت الشواخص ، والسواقى التى كنا نمرّ عليها كان ماؤها يبدو لنا أسودَ يملأ خريرُه القلوب رهبة ... وكذلك أحال الظلام كل ما هو جميل فى الوجود بشماً مرعباً ...

ولاح لنا من بعيد ضوء يتراقص على حاشية الأفق ، فقال القطب:

— هذه هى (التكية) !

فسرّىَ عنا ، وتجددت قوانا ، وعلمنا أنّا قد بلغنا آخر المرحلة ، ودنا المنزل

وكان ذلك سنة ١٩٢٥ . وكانت إحدى رحلاتنا مع (القطب)

وكنا نقوم بهذه الرحلات قبل أن يعرف فينا نظام الكشفية وقبل أن يدخل بلدنا ، نقطع فيها ما لا تقطعه كشافة على وجه الأرض ، نسير خمسين كيلا[1] فى اليوم نُصعّد فى الجبال ، أو نتسلق الصخر ، نخوض ظلام الليل وحرّ الهاجرة ، نحمل أثقالنا على ظهورنا ، نتعرض للوحوش واللصوص والمخاطر ، حتى لم تبق بقعة حول دمشق قريبة أو بعيدة إلا بلغناها ، ولا قرية إلا دخلناها ، ولا عين إلا وردناها ، وكان قائدنا (القطب) ، وليس (القطب) اسمه ، ولكنه لقب لقبناه به أخذاً من الخرافة الصوفية المشهورة[2] ... واسمه الشيخ حسين ، وهو خطاط وإمام مسجد ومعلم صبيان متقشف زاهد يقبل من الدنيا كلّ ما جادت به ، فيأ كل راضياً ما يجد ، ويلبس ما يلق ، ويعرف ربع أهل دمشق ويعرفه نصفُهم . ومن مزاياه أنه أقدر الناس على السير ، حتى إنه ليستطيع أن يقطع عمره كله بالمشى ...

... وكان قد خرج بنا فجرَ هذا اليوم من دمشق إلى الرَّبوة فدُمّر ، فالهامة ، فالجديدة ، فبسّيمة ، فالفيجة — أسماء رياض من عرفها من قراء الرسالة علم أن الله لم يخلق فى الأرض أجمل منها ، ومن لم يعرفها فيحفظها فى ذاكرته ، فلعل الله يكتب له السعادة يوماً بزيارة دمشق فيسأل عنها حتى يراها

فلما بلغنا الفيجة وهى على عشرين كيلا من دمشق ، وفيها العين العظيمة التى تسق دمشق ماء عذباً صفّاه الله ونقّاه ، فلم تُصفّه آلة ولا مِصفاة ، أقمنا فيها إلى المساء ، فلما أذّن المغرب صليناه وسرنا على اسم الله ، فمررنا على دُمّر قانون وسوق وادى بردى وتلك القرى ، نسلك قرارة الوادى العميق تارة ، ونركب الجبل تارة أخرى ، وكنا أقوياء فى أول الطريق ، نسير بجد ونشاط ، وكان القمر الوليد يضوّئ لنا الطريق ، فلما مضت ثلاث ساعات من الليل غاب القمر ، وعمّ الظلام ، ونال منا التعب ، فما قاربنا التكية حتى كدنا نسقط إعياء ...

(١) الكيل على وزن الميل معرب (كيلومتر)

(٢) وأشهر من تكلم فيها ونشرها الشعرانى

وشدَّ قربُ الشكية أعصابنا ، فغنينا أغنية وطنية معروفة ، فلم نسمع إلا صوت الترانيوز

فقال القطب : خاف منا الكلاب ، غنوا يا أولاد !

وكانت الثورة السورية قائمة ، وهؤلاء (الكلاب ...) إنما هم الفرنسيون ولهم مركز قوى فى الشكية لحماية معامل شركة الكهرباء والترام ، وكانوا يقتلون فى تلك الأيام البرئ وهو فى داره ، فكيف بمن يقدم عليهم وسط الليل منشداً الأناشيد الوطنية؟

واستمر صوت الرشاشات ونحن مستمرون فى إنشادنا وسيرنا فرحين بهذه التسلية الجديدة التى أنقذتنا من مَلال الطريق .

وأشهد أن الفرنسيين مجانين ، ولكنهم عقلوا هذه المرة ، لأنهم وجدوا من هو أكثر جنوناً منهم ، وهو نحن ... فوقفوا الضرب ، وأقبل علينا واحد منهم ، فأنار مصباحه ونظر إلينا...

وكان ركبنا مؤلفاً من القطب ، والشيخ شريف ... وهو مدير مدرسة أهلية ، وسلطان الشاى الأخضر فى دمشق ، ومؤلف أناشيد ، وهو أسرع الناس غضباً وأسرعهم رضا ، يشتعل كالبنزين وينطفئ كالبرق ، والشيخ طه ... وهو معلم ولكنه كان ضابطاً فى الجيش قبل أن يكون معلماً ، وأنا ، وسبعة من تلاميذ الشيخ شريف ...

لقد كنا كـ (ركب النميرى) !

فلما رآنا ورأى هذه الهيئات العجيبة ، وهذه الأحمال التى كنا نحملها والتى يعجز عن حملها ثلاثة بغال . رأى قوماً ليسوا من الثوار ولا من أهل القتال ، فما ذا يكون هؤلاء ، وما ذا يدفعهم إلى السير فى هذه البرية نصف الليل ؟

وسألنا — وكنا نعرف من الفرنسية كلمات — فتكلمنا بها ، وكنا نكرر كلمة (بروموناد) أى نزهة ... فلم يشك الرجل أننا مجانين ، وأدخلنا المخفر وجاء بترجمان فكلمنا ، فلما عرف قصتنا كاد يقضى عجباً ، وسمح لنا بالمسير ...

قال القطب : إلى أين نسير ؟ إننا نريد أن ننام هنا !

قال الضابط : هذه منطقة عسكرية ، ممنوع !

قال : إذن أعطونا طعاماً ، وقطرة لعينى فإن بها رمداً ، وعلبة كبريت . فأعطوه ما يريد

فلما خرجنا ، قال القطب :

— أرأيتم كيف غزوناهم وأخذنا طعامهم ؟ آه . لو كان معنا سلاح لذبحنا الكلاب ... والآن . لم يبق إلا أن نمشى إلى (بلودان)(١)

وكانت بلودان فى رأس جبل لا نستطيع تسلقه فى أقل من ساعتين ، وبيننا وبين الجبل مسيرة ساعة ، والإعياء والنعس بالغان منا ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ...

ولما بلغنا بلودان كان السحر قد اقترب ، ولم يكن يحسن أن نقرع باب أحد من الفلاحين فى تلك الساعة ، فقصدنا المسجد وجرب القطب مفاتيحه فى الباب فانفتح لنا ، فاستلقينا من التعب على الأرض ، ووضع كلٌّ رجليه تلقاء رجلَىْ الآخر ، والتففنا ببسط الجامع ونمنا ...

ولما جاء المؤذن لأذان الفجر ، فتح الباب ودخل يتعوَّذ ، وأوقد عود كبريت ، ونظر فرأى ما هاله ، وما قفَّ له شعره ، رأى جِنًّا نائمين كل جِنّى طوله خمسة أمتار وله رأسان رأس من هنا ورأس من هناك ، ووقف المسكين مكانه وقد ألصقه الرعب به فما علك أن يريم ، وجاء بعد قليل رجل آخر فقال له :

— ما لك لا تؤذن يا أبا عبده ؟

قال : أ... أ... أ...

وأشار إلينا وعقد الخوف لسانه ، فنظر الآخر فشُده...

وأحسسنا نحن فقمنا ، وعرف القوم القطب ، فأقبلوا عليه يعاتبونه على ما صنع بهم ...

ونهضنا كما ينهض الجمل نشط من عقال ، وقد وجدنا لهذه النومة القصيرة على الحصير القاسى بعد التعب الشديد ما لا نجده لنوم ليلة كاملة فى البلد على السرير ، ووقفنا للصلاة ، وكان قد اجتمع فيها أهل البلد كلهم لا يتخلف عن الصلاة أحد ، وما أهل البلد ؟ إنهم بشيوخهم وكهولهم وشبانهم لا يَعْدُون الأربعين ...

فلما سلمنا أخذوا يتسابقون إلى دعوتنا ، فقال القطب :

— القاعدة !

وكانت القاعدة أنه لا يستضيف أحداً ولا يدخل داراً ، ولا يرزأ أحداً شيئاً ، وإنما يقصد المنازه والعيون ، وكانوا يعرفون

(١) بلودان على (٥٠) كيلا من دمشق وهي مصيفها وفيها كانت اجتماعات الجامعة العربية

هذه القاعدة فتركوه ، فذهب بنا إلى (عين أبي زاد) ...

ومررنا على القرية فإذا هي قرية صغيرة خاملة فقيرة ، أهلوها على الفطرة النقية ، لا يعرفون الحسد ولا الغش ولا السرقة ، ولم يسمعوا بالقمار ولا بالخمر ، وليس فيهم من يقرب الزنا أو يفكر فيه . والقرية تطلّ على منظر من أعجب مناظر الدنيا ، فهي على رأس جبل تقوم في أسفله (الزّبداني) ، وهي القصبة ، وفيها دار الحكومة والقائمقام والقاضي وقائد الدرك ، وأمامها سهل الزبداني كله إلى منبع (بردى) ، وعن يمينها وادي (سِرْغايا) ، وعن شمالها بُقّين ومضايا ، ومن أمامها مدخل وادي بردى ... وفيها المياه العذبة ، والعيون الصافية ، وفيها العنب والتين والتفاح الذي لا نظير له ، ولكنها منقطعة عن الدنيا لا يكاد يصعد إليها أحد ، لعلوّها وضيق الطريق وصعوبته ، وقلة الدواب ، وكان وجهَ القرية الشيخُ سليمان الرنكوسي وهو رجل ذو مزايا ومناقب ، فمن مناقبه أنه إمام المسجد ، وخطيب الجمعة ، ومعلم الأولاد ، وكاتب الرسائل والعرائض ، وبائع القماش ، ومصلح بوابير الكاز ، ومقسم المواريث ، ومسجل عقود البيع ، وقاضي البلد ... فكأن أهل القرية أسرة واحدة تقية فاضلة ، والشيخ سليمان هو ربها !

وبلغنا العين ، ونصبنا الخيمة التي كنا نحمل أجزاءها مفككة ، وأوقدنا النار ونصبنا القِدْر ، وفتحنا الحقائب فأخرجنا اللحم والخُضَر ، فطبخنا وأكلنا وشربنا الشاي الأخضر ، ثم جلسنا أمام العين جلسة لو تعبنا أضعاف ذلك التعب لكانت مستحقة له ، معوضة عنه ...

ورأيت الفلاحين يتوافدون على القطب : هذا يأتيه بعشر تفاحات ، وهذا يهدي إليه قبضة من التين اليابس أو الزبيب ، وهذا يحمل إليه كأساً من اللبن ، فكان يقبل منهم ويثيبهم عليه بسكاكر ملونة ، أو قُضامة على السكر ، أو لوح صابون ، ورأيت من يأتيه بشيء يأخذ عوضه ثم يقعد لا يذهب ، فلما تكامل عددهم أخرج الشيخ كتاباً من خرجه ، وجعل يقرأ عليهم ويعظهم ، فتسيل دموعهم من خشية الله ...

ومرت السنون على هذه الرحلة حتى نيّفت على العشرين ، وقطعتني الحياة وهمومها ، وأسفاري وعملي في غير ديار الشام عن هذه الرحلات ، وباعدت ما بيني وبين (بلُودان) فلم أرها بعد تلك الزورة ...

... حتى إذا كان هذا الربيع المتصرم ، لقيت (القطب) ، فقال لي : أتذكر تلك الرحلة ؟

قلت : نعم ، أذكرها ولا أنساها

قال : هل لك في مثلها ؟

قلت : قد تغيرت الدنيا ياقطب ، ولم أعد أستطيع أن أمشي ، إن الناس يعرفونني ...

قال : امشي ...

وشدّ (الميم) ومدّ (الشين) فأذكرني ليلة التكية ، فشاقتني الذكرى فقبلت ما عرض عليّ ...

... ولبسنا مثل ثيابنا تلك ، وجمعنا من بقي من أصحابنا ، ومشينا ، فإذا الطرق التي كانت كأنها من جمالها معابرُ الفردوس ومسالك الجنان ، والتي كنا نسير فيها فلا نلقى إلا فلاحين يكرموننا ويحترموننا ، صارت شوارع واسعة لا تنقطع السيارات فيها ساعة ، وكلما مرت بنا سيارة أبطأت في سيرها ونظر من فيها إلينا ، كما ينظرون إلى (عجائب المخلوقات) ، ثم ولت عنا ، ونحن نسمع منها ضحكات النساء الخليعات علينا ، وضحكات شباب هم مثل النساء ، وقذفت في وجوهنا غبارها ودخانها ، وما ذنبنا إلا أننا نمشي على أقدامنا في حرّ الشمس ... حتى أن الكشافين كانوا يمرون بنا في سياراتهم ويضحكون هم أيضاً علينا

ورأينا مرة فرقة كشفية تسير بجانب سيارتها الفارغة مشية عسكرية موزونة كمشية حرس هتلر الخاص تماماً : شمال — يمين . واحد — اثنين . وهم ينشدون :

لا نهاب الزمن   إن سقانا المحن
في سبيل الوطن   ... ...

فداست السيارة على مسمار ، فانفجرت عجلتها ، وكان لها مثل صوت البارود ، فقطع إخواننا النشيد ، وطاروا على وجوههم فلم تمر ثوانٍ معدودات ، حتى صار أشدهم حماسة على بعد خمسين متراً من (مكان الخطر) ، هؤلاء الذين كانوا يمشون كمشية حرس هتلر الخاص ولا يهابون الزمان ...

فقلت : يا قطب ، أتذكر ليلتنا تلك والرشاشات ؟ ... ألم أقل لك : لقد تغيرت الدنيا ؟ !

ووجدنا الأماكن التي كنا نستريح فيها ، والتي كانت من طهرها كأنها معابد الجمال في الأرض ، صارت قهوات وخمارات

ما فيها لأمثالنا مكان ، فكنا نبيت على الصخر ، وعلى ظهور الجبال ، حتى بلغنا (بلودان) ، فمسحنا أعيننا وحسبنا أننا في حلم ... أهـذه بلودان ؟ هذه المدينة العامرة ، ذات الشوارع والقصور ؟ أهؤلاء الشباب الذين يمشون متبخترين بأ كمامهم القصيرة ، وشعرهم الرجل الدهن المطر ، ووجوههم المصقولة ، أهؤلاء هم رجال بلودان ؟ وهؤلاء النساء الكاسيات العاريات ، المائلات المميلات ، أهن نساء بلودان ؟ !

وصارت ثيابنا وهيئتنا شُهرة[1] لنا ، وصرنا ضحكة القوم ، ولم نجد مكاناً نحط فيه ، فسألنا فدلونا على الفندق

وجئنا الفندق الذى شادته الحكومة بأموال هـذه الأمة المسلمة ، لننزل فيه بالأجرة لا صدقة ولا إحساناً ، وكان الفندق الضخم كأنه شعلة واحدة من النور ، وكان فيه تلك الليلة فرقة راقصـة بولونية ... ولعلها يهودية ... وقد فتحت قاعات القمار لكل داخل ، وصفّت كؤوس الخمر لكل شارب ، وأُزّينت الغانيات لكل طالب ، وانتشر اللصوص والنشالون وهم في ثمين الحلل وغالى الثياب ، وعيث الوزراء في السهرة عبث الصبيان ، ورقص القضاة مع المجرمين ، وعكف المأمون على موائد القمار ، وأسلم كلٌّ زوجته لمن يراقصها ليضم أخرى بين ذراعيه ، وتربع إبليس على المسرح يضحك فرحاً ... !

ولما جئنا ندخل الفندق بثيابنا الوطنية ، ثياب الأمة التي بنى بأموالها هذا الفندق ، منعونا وأخرجونا !

فوقفنا ، وجعلنا نفتش كأنا أضعنا شيئاً نفيساً ... وهل شيء أنفس مما أضعنا ؟

لقد أضعنا المسجد والصلاة والأمانة والطهر والقوة حين أضعنا تلك القرية الحقيرة ... لقد كانت جاهلة ولكنها كانت فاضلة ، وكانت فقيرة ولكنها كانت شريفة ، وكانت بعيدة عن الحضارة ولكنها كانت بعيدة أيضاً عن رذائلها ! !

وأحسست بدمعة سقطت على خدى ، فأخذت بيد (القطب) وصعّدنا في الجبل ، نريد أن نهرب من هذه الدنيا ، التي ليست دنيانا ... لقد كانت لنا من عشرين سنة دنيا ، وكان لنا فيها أصدقاء ، فماتت وماتوا ... !

(١) الشهر بالضم ظهور الشيء في شنعة .

أنا والمصحح :

إذا أنا تركت الكتابة يوماً ، وكسرت هذا القلم ، فليطلب القراء ثأره عند مصححي المجلات ، فهم قاتلوه ، بما يدخلون على آثاره من تصحيفات وتحريفات وتبديلات ، وبما يقوّلون صاحبه أشياء لم يقلها ، وقد رأيت العجب من المصححين، ولكن أمر مصحح الرسالة أعجب ، فهو يصلح حتى أقول لا يفسد أبداً ، ويفسد حتى أقول لا يصلح أبداً ، فكأنه ملك الحيرة في يومي بؤسه ونعيمه ، وهذا يوم بؤس له ، ملأ العددين الأخيرين من الرسالة تطبيعات ، وأعجب من هذا أنه يدخل الغلط على مقالاتي فأبعث بالتصويب فلا ينشر .

هذا ، وستمر هذه الكلمة على المصحح الكريم ، فليتكرم بإبقائها على ما هي عليه ، فإذا أبقاها وقرأها القراء فليعلموا أنه رجل أمين منصف ، وإني أشكره على أمانته وإنصافه . وأرجو أن لا يدرك أن هذا المدح رشوة له لينشر هذه الكلمة .

تصويب :

في مقالة (قضية سمرقند) في العدد ٦٨١

أخطاء	في العمود	من الصفحة	سطر	صوابها
يطربه	١	٧٩٩	٧	يطير به
المصرى	٢	٧٩٩	٨	المضرى
وأن	١	٨٠٠	١٣	وإن
دخل	١	٨٠٠	٢٠	ودخل
للحرب	٢	٨٠١	٣١	الحرب
أرعاد	٢	٨٠٢	٤	إرعاد

وفي مقالة (قصة أب) في العدد ٦٨٢

الخطأ	عمود	سطر	صفحة	الصواب
يضق	٢	١٢	٨٢٣	يضيق
فيه	٢	١٧	٨٢٣	فيها
ابتلع	١	٢٣	٨٢٤	انبلج
وصاحت :	٢	٣١	٨٢٤	وصاحت .
لله	٢	٣٢	٨٢٥	إلى الله

(دمشق) **على الطنطاوى**

٣ — من لغو الصيف

ســــوق الرقيق

للأستاذ ســـيد قطب

هذا الحشد من العرايا فوق « البلاج » إنه يذكرني بسوق الرقيق . لم أر هذه السوق ، ولكنني قرأت عنها ، ورسمت لها في نفسي صورة . . إنها لو تجسمت ما كانت إلا هذا الحشد من العرايا فوق « البلاج » !

إنني أسمع هنا صلصلة القيود ووسوسة الأغلال وسوط النخاس ! لا ألمح هنا طلاقة الروح ، ولا حتى فراهة الجسد ! لا ألمح الحرية التي ترفرف بلا سدود ولا قيود !

يخيل إليّ في أحيان كثيرة أن هناك « نخاساً » هو الذي يعرض هذه الأجساد للشراء . أكاد ألمحه مختبئاً خلف هذه الأجساد الرخيصة التي تتحرك وفيها ثقلة القيد ، وتترنح فتوسوس الأغلال !

ويحى ! . .

مالي لا ألمح الفرح في هذه الوجوه الضاحكة ، ولا أحس السعادة في هذه الملامح المرحة ؟ . .

ليس هنا فرح ولا سعادة ، فالفرح نورانية وإشراق ، والسعادة شفافية واطمئنان ... هنا عربدة تخفى وراءها ضجراً ، ومرح يستر في الجوانح الضيق ! . .

هؤلاء قوم ضاق عالمهم « الباطن » ، فانطلقوا يذرعون الأرض بحثاً عن عالم « الظاهر » ، ومن فقد نفسه فهيهات يجد في « الخارج » شيئاً يطمئن إليه ، ويستشعر به السعادة والهدوء ! مسا كين ! ! !

* * *

ولكن أهذه محنة رواد « البلاج » وحدهم في هذه الأيام ؟ كلا ! إنما هي محنة هذه الإنسانية التي غفلت عن نفسها لتسمع صوت الآلات ، محنة هذه الحضارة المادية الواردة من أوربا ، والتي فتنت الناس عن أنفسهم بما أبدعته من وهج وبريق وضجيج !

كم أمقت هذه الحضارة الأوربية وأحتقرها ، وأرثى للإنسانية التي خدعت بها ، فأوردتها التهلكة ... بريق وضجيج ، ومتاع حسي غليظ . وفي هذه الضجة تختنق الروح ، ويخفت الضمير ، وتنطلق الغرائز والحواس ، سكرانة معربدة تهيجها الأنوار الحمراء ، كالديكة والثيران في بلاد الأسبان !

حينما كان للإنسانية « باطن » تستجليه ، وتستشرف فيه النور المشرق الشفيف ، وتستروح فيه الأشواق الخالدة ، والآفاق البعيدة ... كانت هادئة مطمئنة مستقرة ، لأنها في الأعماق هناك غنية بما تجد ، مستغرقة في ذلك العالم الفسيح ...

فلما طفت على السطح بفضل هذه الحضارة المادية البائسة ، ظلت تقفز وتقفز ، فلا تستقر أبداً وظلت في قلق دائم ، وهياج مستمر . تبحث في كل يوم عن جديد ، وتزهد بعد يوم في هذا الجديد .

إنها اللعنة التي يعدها « معجزة » بعض المفتونين بالبريق . ما قيمة آلات واختراعات وكشوف لا تحقق للنفس سعادتها ، ولا تهب للضمير اطمئنانه ، ولا تستمتع فيها الإنسانية حتى بالراحة من الضجر والقلق والعربدة والضيق ؟

* * *

ولقيني بائع الكتب في أحد مقاهي المدينة ... فشكا إلى كساد سوق الكتب في هذه الأيام ! وقلت أعزيه عن خسارته أو أسليه :

— أو تحسب الناس هنا جاءوا ليقرأوا كتبا ؟ إنهم يستروحون ويستجمون ويستعيدون نشاطهم المفقود !

فما كان أسرعه بالجواب .. إنه فيلسوف :

— وهل هذه السهرات الحمراء الصاخبة التي يغرقون فيها مما يريح الأعصاب يا سيدى الأستاذ ؟!

وحرت كيف أجيبه . وجمجمت بالكلمات المخنوقة ، في الوقت الذي كان هو يتابع حديثه بعد هذا الاستفهام :

— الكتب يا سيدى الأستاذ تباع الآن في الحي الحسيني . هنالك تجد الإقبال على جميع أنواع الكتب القيمة حتى في هذا الصيف الشديد ...

إذن ما تزال في هذه الأمة خير . هذا الخير هنالك في الحي الحسيني حيث يعيش الفقراء من الناس ، وحيث يعيش

الأزهريون .. هنالك حيث يخفت قليلا صوت الحضارة المادية الجوفاء ، وحيث يحيا جزءٌ من الماضي .

ولكن إلى كم يا ترى يعيش هذا الخير قبل أن يختنق ؟ ليخيل إلى أن الأزهر في هذه السنوات « يتجدد » على طريقة « الغراب » . فهلا اتقى الله فيه أولئك « المجددون » فحفظوا له قدعه البعيد في عهد الاجتهاد ، وصانوه عن ذلك « التجديد » أو ذلك « التقليد » ؟!

الكتب ..

وهل يصبر هذا الجيل الضجر القلق المريد الصاخب ... على الكتاب ؟ ولماذا يقرأ الكتاب الجاد ، ولديه تلك المجلات الرخيصة والأفلام الداعرة تملق غرائزه ، وتنادي أحقر ما فيه ؛ وتنشر له صور المرايا على البلاج ، وتحدثه بالدعارة عن القلب الإنساني وما فيه ؟

أقول القلب الإنساني ! وهل تعرف هذه الصحف والأفلام القذرة ومحرروها وممثلوها الرقعاء ، شيئاً عن القلب الإنساني ؟ ولكنهم يسودون صفحات في كل أسبوع وينشرون أفلاماً في كل شهر عن هذا القلب الذي يزعمون !

آه .. لو سوط الجلاد !

هنالك في « نجد » يجلدون الشعراء الذين يقولون الغزل . وهنا في مصر يصفقون لمن يدلون الفتيات والفتيان على طرق الدعارة ويدربونهم على المجون الرقيع ...

شيء من التسامح هناك . وشيء من الحزم هنا ... رحمك الله يا محمد بن عبد الوهاب ، ويرعاك الله يا عبد العزيز آل سعود ! يوم وليلة فقط من هذا في مصر ، ليجلد أولئك الرقعاء في محطة الإذاعة وفي « ستوديهات السينما » وفي جميع المجلات المصرية ، الإعداد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، يشرف عليه بعض الشرفاء ذوي الأعراض وهم قليلون ! !

ولكنهم مساكين .

لقمة العيش وشهوة الجسد ... هذا كل عالمهم في الوجود ! هم وقراؤهم ومستمعوهم ومشاهدوهم من ذلك الطراز ... ليس هنالك أفق مجهول ، ولا هدف مكنون .

ليس هنالك عالم في الضمير يعيشون فيه بعض الوقت ، ثم يخرجون منه ليروا هذا العالم الظاهر بعين المستطلع ، وحس المتذوق ، وشعور الغني بالرصيد المذخور !

نهم بالمتاع وسعار ، المتاع الحسي الغليظ ، المتاع المتاح في هذا العالم المادي ... لو كان لهم روح تستشرف آفاقا وأنوارا أخرى لا قتصدوا في هذا المتاع الحسي الغليظ !

ولولا جريمتهم في نشر الدعارة بين الشعب كله ، لاستحقوا الرثاء ولكنهم ينشرون في صحافتهم وأفلامهم وأغانيهم ما يعاقب بوليس الآداب على بعضه في المواخير ، ويسمون بعد ذلك كله صحفيين أو مطربين ناجحين !

* * *

ويحي ! لماذا استطردت هذا الاستطراد ؟ إنما أتحدث عن « سوق الرقيق » !

واللطمة ؟

هذا هو الاسم الذي اختاره بعضهم بحق للقسم من « الكورنيش » بين « بلاج سيدي بشر رقم ١ » و « بلاج سيدي بشر رقم ٢ » .

فبينما ينقضي النهار ، يخرج رواد « البلاج » منه ، ويصطف بعضهم في المساء على سور « الكورنيش » بينما يجول بعضهم الآخر ذهابا وإيابا .

يستعرض هؤلاء أولئك ، ويستعرض أولئك هؤلاء !

هؤلاء هن جواري سوق الرقيق ... هؤلاء هن معروضات تجول فيهن الأنظار ، وتحملق فيهن العيون ، وتتدسس الخطرات المريضة إلى أجسادهن الرخيصة في رقاعة وفضول .

هذه هي الضحكات الرخوة الآثمة ؛ وهذه هي الحركات الرقيعة الماجنة ... ضحكات الجواري ، لا تدل على فرح عميق ولا حتى على مرح أصيل . إنما هي ضحكات الرقيق لاجتلاب « الزبون » ! ضحكات يحاسب عليها النخاس أو يثيب !

من ذا ينقذكن أيتها الجواري المسكينات من سوق الرقيق ؟ من ذا يردكن إلى البيوت الكريمة النسوية ، ويرد إليكن كرامتكن المهدرة ، التي سلبت منكن باسم « المودرنزم » في هذه الأيام السود ؟

كان الرجال يتشهون نظرة من بعيد ، ويتشوقون إلى زواج كريم نظيف . فصرتن اليوم سلعة معروضة على الأنظار ، سلعة في سوق الرقيق !

...ونسيت أن أقول : إن تسعة أعشار هذا الهوان ، إنما تبعثه الرغبة فى أن تجد هذه الجوارى أزواجا !

أزواج فى الطريق ... وفى « البلاج » !

لن تجدن هنا يا آنساتى أزواجا . إنما تجدن تجار أعراض ، وشراة أجساد ...

ولن تكون إلا النخاسة ياعزيزاتى الأوانس : فى هذه السوق ... سوق الرقيق !

سيد قطب

الشريعة الإســـلامية

ومبادئ التشريع الحديث

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

إن كل قانون فى العصر الحاضر يدعى واضعوه كفالته للعدالة ، وتحقيقه لسعادة الأفراد والأمم ، وأنه جاء وفق ما تقضى به عوامل التقدم والارتقاء — لا يمكن أن يعدو فى أغراضه المقاصد الآتية :

١ — تحقيق العدالة والمساواة بين الأفراد والجماعات .

٢ — جلب المصالح ودرء المفاسد .

٣ — قيامه بمطالب الأمة وحاجاتها ، ومواءمته لميولها وفطرتها والعصر الذى يطبق فيه .

٤ — مرونته ويسره وسهولة تطبيقه .

وأنت إذا نظرت بعين التدبر والحكمة — بعد تقصى قواعد الشريعة الإسلامية وأصولها ، والبحث فيما خلفه المجتهدون الإسلاميون من أحكام الفروع الملائمة لعصورهم — لم ترتب أقل ارتياب فى تحقيق الشريعة الإسلامية هذه المقاصد ، وأنها وصلت فى سموها وعدالتها وسماحتها إلى أبعد غاية .

وما ظهر نقصه من أحكام بعض الفروع فى المعاملات وغيرها ليس بعيب راجع إلى شريعة الإسلام ، وإنما هو راجع إلى المسلمين الذين لم يقم علماؤهم بما يجب عليهم من الاجتهاد فى كل عصر حتى تجىء أحكام الفروع والوقائع الاجتهادية ملائمة للأمة ، ولما جد من الأحداث والشئون .

كذلك ما قيل : إن الحدود فى الشريعة قاسية لا تتفق مع روح التشريع الحديث قد فندناه ودحضناه بالبرهان وبما دلت عليه التجربة والوقائع والمشاهدات ، وذلك فيما كتبناه بالعددين ٦٨١ ، ٦٨٢ من الرسالة فى مقال « شريعة النكال والخلود » .

أما الشرائع الحديثة فهى — وإن اشتملت على مبادىء نقر بسمو كثير منها ، ونعترف بدقة وضعها ، وعلى أحكام يراد بها تحقيق العدالة ، وإجراءات نظامية دقيقة — لم تستطع أن تقضى على كثير من الشرور والآثام التى تنخر عظام الأمم ، وتنشر فيها كثيراً من الأمراض الاجتماعية والخلقية :

فقد أحلت الربا فى أكثر حالاته ، وهو الذى يوغر صدور بعض طبقات الأمة على بعض ، وينتزع الشفقة والرحمة من القلوب ، ويدع طوائف الأمة متحاربة متباغضة .

وأباحت شرب المسكرات ، وهى جناية على المال والعقل والأهل والذرية .

وليس فيها لما يقى الأعراض من الجناية عليها : فامتهنت الكرامات وكثر اللقطاء ، وشاع فى الأرض الفساد ، كذلك خلت من الزواجر التى تحول بين المجتمع وبين مفاسد الميسر والقمار .

وقد يحتجون لإباحة بعض هذه المنكرات باحترام الحرية الشخصية ، وما دروا أن هذه الحرية قررها الإسلام على ألا يساء استعمالها ، وألا يكون فيها ضرر على الأفراد أو المجتمع « وهذا هو شأن الحرية الصحيحة الجديرة بالرعاية والتقدير » .

ومما لا شك فيه أن هذه الجرائم التى أشرنا إليها مفاسدها لا تقتصر على مقترفيها ، بل تشملهم ورهطهم ، وقد تتعداهم إلى المجتمع والأمة .

من أجل هذا حظرت شريعة الإسلام تلك المناكير ، وأحدث كل أمة تأخذ بأحكامها لحياة اجتماعية يسودها التقدم والنهوض ، وتنتفى فيها ذرائع الفساد وأسبابه ، وتتوافر فيها العزة والكرامة والمنعة ، وتلك هى الحياة الخليقة بخير أمة أخرجت للناس .

حسن أحمد الخطيب

صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والتجسس

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

شُغف الخلفاء العباسيون بالتجسس ومالوا إليه . وقد كان لابد لهم من تسقّط الأخبار والحفول بها لئلا ينسبوا إلى الضعف والغفلة أو يجترئ عليهم الأعداء والأخصام . فإن من أخلاق الملك اليقظ السعيد على قول الجاحظ : البحث عن سرائر خاصته وعامته ، وإذكاء العيون عليهم ، والبحث عن كل خفي دفين[1] .

وبغداد ، وما كان فيها من أخلاط المخلوقات وأغاط الناس ، وما انتشر فيها من آراء سياسية وعصبية ، وما ظهر فيها من ميول شعوبية وعلوية وهاشمية كل هذا دفع الخلفاء إلى التجسس ولمّ الأخبار ليحفظوا ملكهم ويكونوا على بينة مما يجري .

وقد ذكروا أن الرسول عليه السلام ، كان ، ليقظته يرسل الجواسيس والعيون يتحسسون أخبار أعدائه المشركين . ولم يكن عصر النبي عليه الصلوات ، كالعصر العباسيّ ، ولا كان المجتمع إذ ذاك ، كالمجتمع يومئذ . فليس من الغريب أن يشغف العباسيون بالتجسس ، فهو ضرورة من ضرورات المُلك .

كان التجسس يجري على طريقتين : ظاهرة وخفية . أما التجسس علانية فكان يقوم به أصحاب الأخبار والبريد . وكانوا منتشرين في كل مكان ، وكان عليهم أن يعرفوا حال عمال الخراج والضياع ، وأن يتتبعوا ذلك تتبعاً شافياً ، ويستشفوه استشفافاً بليغاً ، وأن ينهوه على حقه وصدقه . وأن يعرفوا حال عمارة البلاد ، وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجري في أمور الرعية فيما يُعاملون به من الانصاف والجور ، والرفق والعسف ، فيكتبوا به مشروحاً .. وأن يعرفوا ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم ، وأن يعرفوا حال دار الضرب وما يُضرب فيها من العين والوَرِق ، وما يلزمه الوردّون من الكلف والمؤن . وفي كل ما ينهونه . ينبغي أن يكونوا صادقين واثقين مما يُنهون . فإذا ورد كل ذلك على الحضرة سُلّم إلى صاحب ديوان الانشاء ليحمله إلى حيث يطلع عليه الخليفة ويأمر بما يرى ، ثم يكتب للآفاق بما ينبغي[1] .

فهؤلاء كانوا جواسيس رسميين ، أما الجواسيس الذين لا يظهرون أنفسهم ، ولا يعرفهم أحد ، فكانوا أنواعاً متنوّعة ، تفنن الخلفاء في استخدامهم . وكان فيهم « الطفل والمرأة والمحتاج والزّمِن وابن السبيل ... »[2] .

وأول من عُني بالتجسس الخفيّ من الخلفاء : أبو جعفر المنصور « فقد كان يشتري رقيقاً من الرقيق ، ثم يُعطي الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، فيهيمون ، أو يَرِدون المياه كالمارين وكالضالين فيتجسسون ... »[3] .

ويحدثنا الطبري أن أبا جعفر أتى مرّة بأحد جنده فقال له : « أخف شخصك واستر أمرك وائتني في يوم كذا في وقت كذا ، فأتاه ، فقال له إن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيداً لملكنا واغتيالا له ، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف من ألطاف بلادهم . فاخرُج بكُسَىّ وألطاف وعينٍ حتى تأتيهم متنكراً بكتاب عن أهل هذه القرية ، ثم تسبر ناحيتهم . فان كانوا قد نزعوا عن رأيهم فأحبِبْ والله بهم وأقرب . وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر . فاشخَصْ حتى تلقى عبد الله بن حسين متقشفاً متخشعاً ، فإن جبهك وهو فاعل ، فاصبر وعاوده . فان عاد فاصبر حتى يأنس بك ، وتلين لك ناحيته ، فان ظهر لك ما في قلبه فاعجل عليّ ... » فشخص الرجل حتى قدم على عبد الله فلقيه بالكتاب فأنكره ، ونهره . وقال ما أعرف هؤلاء القوم . فلم يزل ينصرف ويعود حتى قبل كتابه وألطافه ، وأنس به . فسأله الجواب . فقال : أما الكتاب فإني لا أكتب لأحد ، ولكن أنت كتابي إليهم ، فأقرئهم السلام ، وأخبرهم أن ابنيّ

(١) التاج في أخلاق الملوك ص ١٦٢ .

(١) كتاب الخراج لقدامة (دي غوية . ص ٢٨ — ٣٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦) .
(٢) كتاب بغداد لطيفور .
(٣) الطبري حوادث سنة ١٤٤ .

خارجان لوقت كذا وكذا فعاد الجاسوس إلى أبي جعفر وأخبره[(١)].

وحدّث صاحب عذاب أبي جعفر قال : دعاني أبو جعفر ذات يوم ، وإذا بين يديه جارية صفراء ، وقد دعا لها بأنواع العذاب ، وهو يقول لها : ويلك أصدقيني ، فوالله ما أريد إلا الإلفة ، ولئن صدقتيني لأصلنّ الرحم، ولأتابعن البرّ إليه . وإذا هو يسائلها عن محمد بن عبد الله ، وهي تقول : ما أعرف مكانه . ودعا بالدهق وأمر به فوُضع عليها . فلما كادت نفسُها أن تتلف قال : أمسكوا عنها ، وكره ما رأى . وقال لأصحاب العذاب : ما دواء مثلها إذا صار إلى مثل حالها ؟ قالوا : الطيب تشمه ، والماء البارد يصبّ على وجهها ، وتسقى السويق . فأمر لها بذلك ، وعالج بعضه بيده ، حتى أفاقت ، وأعاد عليها المسألة ، فأبت إلا الجحود . فقال لها : أتعرفين فلانة الحجّامة ؟ فاسود وجهها وتغيّرت . فقالت نعم يا أمير المؤمنين، تلك في بني سُليم . قال : صدقت ، هي والله أمتي ، ابتعتها بمالي ، ورزقي يجرى عليها في كل شهر أمرتها أن تدخل منازلكم ، وتحجمكم ، وتعرف أخباركم . أوتعرفين فلاناً البقّال ؟ قالت نعم ، هو في بني فلان . قال : هو والله مضاربي بخمسة دنانير أمرته أن يبتاع بها كل ما يحتاج إليه من البيوع . فأخبرني أن أمة لكم في يوم كذا من شهر كذا ، صلاة المغرب ؛ جاءت تسأله حناء وورقاً ، فقال لها : ماتصنعين بها ؟ فقالت : كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية البقيع ، وهو يدخل الليلة ، فأردنا هذا لتتخذ منه النساء مايحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب .

(قال) : فأسقط في يدها ، وأذعنتْ بكل ما أراد[(٢)] .

وهذه القصة والتي قبلها تبينان لنا كيف سخّر أبو جعفر أحد جنده ، وأمته ، وبقالا مضاربا له ، للتجسس وجمع الأخبار

ولعلك تعلم حبه تتبع الأسرار مما سأقصه عليك . قالوا : إن أبا جعفر قال ذات يوم لأصحابه : ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لايكون أعف منهم ، وهم أركان الدولة ، ولايصلح المُلك إلا بهم . أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القويّ ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية . ثم عض المنصور على إصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول في كل مرة : آه ، آه ! قيل ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة[(١)] .

* * *

وكان الرشيد من أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته ، وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً[(٢)] . وكان يتسقط أخبار الهادي قبل أن يصبح هو خليفة ؛ فقد كان مسرور الكبير في خدمة المهدي ، وكان الرشيد حفياً به محسناً إليه . فلما انتقل أمر الخلافة إلى الهادي قال له الرشيد : أخي قويّ الشراسة ، وأنا أخاف إيقاعه بي ، وجمعَ الناس على بيعة ابنه بعده . وأنا على غاية الثقة بك فاعدل إليه ، وكن له عيناً عليه » فتقدم مسرور عند الهادي حتى تولى ستر بيت خلوته فكان يُنهي إلى الرشيد كل كلمة من كلامه ، وفعل ...[(٣)]

وكتب الأدب والتاريخ مترعة بأخبار تتبعه أسرار رعيته حتى كان ذلك يدفعه إلى إخفاء شخصه ، والطواف مع جعفر ابن يحيي في الأسواق وبين الأحياء ، ليتسقط الأخبار ، ويعرف مايدور بين الناس من الأحاديث ويستطلع مالا يصل إليه خبره[(٤)] .

ولم يقنع بأسرار رعيته ، بل وكل عيوناً على ولديه . فكان مسرور الخادم رقيب المأمون ، وكان جبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين[(٥)] .

* * *

وعلى نحو هذا كان المأمون في أيامه . ذكر أبو الفرج أنه لما تولى الخلافة وأتى بغداد ، كان يتجسس على إبراهيم بن المهدي فألزمه رجلا ينقل إليه كل مايسمعه من لفظه جداً أو هزلا[(٦)] .

ويسوق الجاحظ دليلا على تتبع المأمون أسرار رعيته رسالته إلى إسحق بن إبراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام ،

(١) الطبري حوادث سنة ١٤٤
(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ١٦٠ (طبعة أوروبية) .

(١) التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٢١ .
(٢) التاج ص ١٧٠ .
(٣) المكافأة وحسن العقبي (تحقيق محمود محمد شاكر) ص ٦٣ .
(٤) الأغاني مثلا ج ٦ ص ١٣٢ ؛
(٥) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٨٣ .
(٦) الأغاني ج ٢٠ ص ٨٢ .

التى خبّر فيها عن عيب واحد واحد ، وعن حالته وأموره التى خفيت ، أو أكثرها ، عن القريب والبعيد[١] .

وقد ذكر صاحب محاضرات الأوائل أنه كان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة ، يتفقد بهن أحوال الناس من الأشقياء ومن يحبه ويبغضه ، ومن يفسد حُرَم المسلمين . وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن وأنه كان يدور ليلا ونهاراً مستتراً .

وقد يكون هذا الخبر صحيحاً فيما يتعلق بإرسال العجائز ، أما عددهن وأنه كان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن ففيه مبالغة .

وكان المأمون يُعنى بمعرفة أحوال عُمّاله . فكان يفحص عنهم ، وعن دقيق أسرار حكامه فحصاً شافياً ؛ فلا يخفى عليه ما يفيد كل امرئ وما ينفق ، وكان من نأى عنه كمن دنا منه ، فى بحثه وتنقيره ، وكان يتتبع أحوال القضاة والولاة والجند[٢] .

فذكروا أنه سأل يوماً جماعة : من أنبل من تعلمون نبلا وأعفهم عفة ؟ فذكر كلٌّ من يراه . فقال : لا ، ذلك عبد الله بن طاهر دخل مصر كالعروس الكاملة : فيها خراجها ، وبها أموالها جمة ثم خرج عنها ، فلو شاء أن يخرج منها بعشرة آلاف ألف دينار لفعل ؛ وقد كان لى عليه عين ترعاه ، فكتب إلىّ أنه عُرضت عليه أموال لو عُرضت علىّ لشرهت إليها نفسى ، ولقد خرج عن ذلك البلد وهو بالصفة التى قدمه فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس[٣] .

وحدّث بشر بن الوليد قال : كنتُ عند المأمون ، فقال : ولينا رجلا قضاء الأُبُلّة ، وأجرينا عليه فى الشهر ألف درهم ، وما له صناعة ولا تجارة ولا مال قبل ولا بيتاً ابتناه ، وولينا رجلا آخر قضاء دمشق وأجرينا عليه ألف درهم أشار به علىّ محمد بن سماعة ، فأقام بها أربعة عشر شهراً فوجهنا من يتتبع أمواله فى السر والعلانية ، ويتعرّف حاله ، فأخبر أنه وجد ما ظهر من ماله فى هذا المقدار من دابة وغلام وجارية وفرش وأثاث قيمته ثلاثة آلاف دينار . وولينا رجلا أشار به فلان نهاوند

(١) التاج : ص ١٧٠ .
(٢) المحاسن والمساوئ ، ص ١٦٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ .

فأقام بها أربعة وعشرين شهراً ، فوجهنا من يتتبع أمواله ، فأخبرنا أن فى منزله خدماً وخصياناً بقيمة ألف وخمسمائة دينار سوى نتاج قد اتخذه[١] .

وحدّث إبراهيم بن السندى أنه جالس المأمون ومعه إبراهيم ابن المهدى فطفق المأمون يحدّث عن أهل عسكره ، حتى والله لو أن رجلا أقام فى رحل كل رجل من الجند حولا ، لما زاد على معرفته لشدة تنقيره وتتبعه أخبار الناس[٢] .

فهذه الحوادث التى سردناها ، تدل على حبه التجسس ، ودسّ الناس ليتسقطوا له الأخبار ، ويطلعوه على ما يشاء .

(له بقية) صموئيل البرين الخير

(١) المحاسن والمساوئ ، ص ١٦٣ .
(٢) تاريخ بغداد لطيفور ص ١٠٠

من وحي المأساة الفلسطينية :

نــكبة العرب فى الأندلس

للأستاذ محمود عزت عرفة

انقضى أربعمائة وأربع وخمسين سنة على حادث سقوط حصن غرناطة آخر معاقل العرب بالأندلس فى أيدى الأسبانيين ، وقد تم ذلك سنة ١٤٩٢م ؛ فكان خليقاً بنا ومأساة فلسطين تُمثَّل أن نعالج بإيجاز أسباب تلك المأساة الفاجعة ، ونتلمس عللها بين حوادث التاريخ ، ونقف عندها وقفة نخرج منها بعبر وعظات نافعات ، هى الغاية العليا من كل دراسة والقصد الأسمى من كل تحقيق وتمحيص .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن جحافل العرب حملت معها من أول يوم وطئت فيه أرض الأندلس جرثومة هذا الداء الذى أنهكها واستصفى قواها ، وأدال دولتها بعد ثمانية قرون من الزمان . فقد اجتاح موسى بن نصير أرض الأندلس عام ٧١١م حتى بلغ أطرافها الشمالية ؛ وعهد إلى قائده طارق بفتح مدائن (جيليقية) فى الشمال الغربى ، بينما اجتاز هو سـدَّ جبال البرانس الشامخ وانحدر إلى سهول فرنسا ، مستزماً أن يدلف إلى القسطنطينية من طريق الغرب ! !

حلمٌ كان حرياً أن يتحقق لو لم يستيقظ موسى من نشوته على دعوة الوليد بن عبد الملك الذى أهابَ به أن يكف عن إيغاله فى الغزو وينكفئ بعسكره معاق إلى أسبانيا ... وما كان له إلا أن يسمع فيطيع . على أنه انصرف وقتذاك إلى المسيحيين المتحصنين بأقصى الشمال الغربى من شبه الجزيرة تحت إمرة زعيمهم (بلايو) ؛ وكان يسبيل أن يقلم أظفارهم ويقى البلاد شر مكايدهم وفتنهم التى ذرَّ قرنها بعد حين ؛ لولا أن هتف به داعى الخليفة مرة أخرى أن يؤوب إليه وطارقاً ؛ فتركا زمام الأمور فى يد عبد العزيز بن موسى وسارا إلى المشرق .

وقد نُـكب موسى بعد قليل على يد سليمان بن عبد الملك ، واغتيل ابنه عبد العزيز فى شوارع إشبيلية بتدبير منه ، ولم يكن مصير طارق بأفضل من هــذا . ففقدت الأندلس بموت أولئك كل من كان يفكر فى إتمـام الفتح على خير وجوهه ، وأتيحت لفلول المنهزمين فرصة الحياة بعد أن أشفوا على الدمار ، وتهيأ لهم أن يجمعوا كيدهم وينتظموا صفوفاً حتى أصبح موطنهم جيليقية مصدر القلاقل ومهب الرياح العاتية التى اجتاحت ملك العرب فيما بعد ، ودكت بنيانهم من القواعد ...

ولم يكن ولاة بنى أمية فى ضعفهم ليزيدوا الحالة إلا سوءا ؛ فقد احتدمت الخصومة على عهـدهم بين العرب والبربر ، وبين العرب وأنفسهم من يمانيين ومضريين ؛ وكان فى تسلُّم عبد الرحمن الداخل زمام الحـكم انتصار لفريق من هؤلاء دون فريق[1] . وإذا كانت سطوة الحكم الأموى فى الأندلس قد قضت على عوامل هذا الخذلان والتفرق ، فإن ما وقر بسببه فى النفوس من حزازات كان كفيلا بتهديد وحدة العرب وتآلفهم ، مهيباً بكثير منهم إلى الثورات الجامحة والفتن المبيرة ، مما ظهرت عواقبه الوخيمة فى أخريات أيامهم .

***

بسط العرب ظلال السلام على الجزيرة ، ورفعوا لواء العدل والمساواة فى أرجائها ؛ فارتضى سيرتهم كل من عاشرهم من الأسبانيين واتصلت أسبابه بأسبابهم . ولـكن بقيت هـذه الأطراف المستعصية تجيش قلوب أهلها بكراهيتهم والحقد عليهم وإعمال المـكيدة لهم ، حتى بين جدران قصورهم ، وتحت قباب معابدهم !

فقد ذكروا أنه وُجد على جانب أحد أعمدة المسجد الجامع بقرطبة صورة تمثل المسيح مصلوباً ، كان قد رسمها أحد المسيحيين ممن نافقوا بإظهار الإسلام وعاشوا بين ظهرانى العرب يكيدون لهم ويمالئون عليهم . ولمـا دخل الأسبانيون قرطبة وكشفوا عن موضع هذه الصورة رسموا أمامها على الجدار المقابل لها وجهاً يمثل هذا المسيحى الذى خطها — فيما زعموا — بأظافر يده[2].

(١) انضم إلى عبد الرحمن الداخل أنصار بنى أمية من أهل الشام ، وجند كثير من اليمانيين والبربر ممن كانوا يسخطون على الوالى العباسى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى انحازت إليه قبائل المضريين عامة . وبانهزام هذا الأخير اجتمعت السلطة إلى عبد الرحمن الذى أسس ملك بنى أمية بالأندلس عام ٧٥٥ م .

(٢) انظر رحلة الأندلس للمرحوم محمد لبيب البتنونى ص ٥١

فكم يا ترى عدد من كانوا يعيشون بين المسلمين من أمثال هؤلاء ؟ وما مبلغ بلائهم فى تقريب هذه النهاية الفاجعة التى آل إليها أمر العرب بالأندلس ؟ ...

لسنا نستطيع أن ننكر العلاقة بين هذه الحالة وبين سياسة التسامح الدينى التى جرى عليها المسلمون فى هذه البلاد بين قوم عشيت عيونهم عن أضواء حضارتهم ، واسودت قلوبهم بظلام الحفيظة والاضطغان عليهم ...

ونعنى بهؤلاء القوم أولئك الذين اعتصبوا ضد العرب لغير ما سبب ظاهر ؛ دون من تبطنوهم من المسيحيين وقاسموهم العيش فى دعة وسلام ، فارتشفوا رحيق آدابهم وجنوا ثمار علمهم وحضارتهم ؛ وتبوأوا — إلى جانبهم — سنى المناصب ورفيع الدرجات مما هيأتهم له مواهبهم وعبقريتهم .

* * *

أساء قوم من المسلمين فهم هذا التسامح الدينى الذى أمروا به وانتُدبوا إليه ، وأعمتهم بوارق الحياة ورغائب العيش عن تعرُّف حدوده ، وتبيُّن أغراضه ومراميه ؛ وشوهت شهوات الدنيا لديهم من صورته الجميلة المشرقة ؛ وتنكبت به ضلالات النفوس عن طريق الحق ومناهجه المستقيم .

فلم يكن عجيباً بعد ذلك أن نرى عمًّا[1] للحكم بن هشام ينهض إلى عاصمة إكس لاشابل عاصمة شارلمان فيستجدى محالفته فى خنوع ، ويلتمس منه المعونة على إسقاط ابن أخيه القائم بالأمر ، وكان ذلك عام ٧٩٧ م أى قبل مرور قرن واحد على دخول العرب الأندلس . ولم يكن عجيباً أيضاً أن نرى المستعين حفيد الناصر (١٠٠٩ م) يرسل رسله إلى بلاط سانكو أمير قشتالة ليعينه ضد منافسه المهدى وهو من أحفاد الناصر أيضاً ؛ فيجد رسل المهدى قد سبقوه إلى طلب هذه المعونة من الأمير ... والأمير يفاضل بين الرجلين ويعرضهما على مرآة مطامعه ؛ ثم ينتهى إلى رفض معونة المهدى والإقبال على نصرة المستعين ... إلى أمثلة من مثل ذلك كثيرة نحيل فيها إلى مظانها من مصادر التاريخ .

ولقد أحسن ملوك أسبانيا استغلال هذه الفرص السوانح ، فزادوا نار الفتن بين المسلمين استعاراً ، وأذاقوا بعضهم بأس بعض ؛ وراحوا يقتصون من أطراف بلادهم ويفرضون الجزية على المستضعفين منهم ، استنزافاً لثروتهم ، وغلا لأيديهم عن كل ما يمهد لهم سبيل القوة . وأخيراً أعلنوا ضد الجميع حرباً صليبية لا هوادة فيها — فى وقت كان المسلمون فيه قد فقدوا صفاتهم الأولى من التخشن وسمو المبدأ ، والتحمس للدفاع ، وشدة الرغبة فى الجهاد . فكان تخاذلهم عن حياة ملكهم عظيما ، وتهافت ملوكهم المتنابذين على استرضاء ملوك النصارى المتربصين بهم بالغاً غايته . حتى لقد كان من مخزيات ما حدث فى أواخر القرن الحادى عشر أن اكتسح الملك الفونس السادس أقاليم الأندلس إلى أن بلغ جبل طارق ثم احتل طليطلة عام ١٠٨٥ م ، فبادر ملوك الطوائف بتقديم فروض التهنئة إليه ! وأسبغوا عليه أو قبلوا أن يسبغ على نفسه لقب « ملك المسيحيين والمسلمين » !!

وما نشك فى أن هذا الفتور الذى أصاب نفسية العرب يرجع — فيما يرجع إليه من أسباب — إلى كثرة عناصر المولدين والمهجناء فى أوساطهم ، منذ درجوا على خطة التزوج من الأسبانيات أو التسرى بهن . ولقد كانت هذه الخطة ظاهرة النفع فى عصور الدولة الأولى ، بما أجرت فى عروق العرب من دماء جديدة ، وبما نشأت من جيل متميز فى مواهبه جامع لمحاسن العنصرين فى أخلاقه وتفكيره وجميع مقوماته . ولكن استحال كل هذا إلى مضرات بالغة فى العصور المتأخرة ، إذ تقلصت روح العصبية التى اشتدت حاجة العرب إليها حين كانت جحافل الأسبانيين تزحزحهم عن بلادهم حصناً بعد حصن ، وفشت روح الاستهانة بوازع الدين ، ولم يعد ثمة أثر لطموح المسلمين الأوائل ، وشدة تحمسهم لرفع لواء عقيدتهم ، بل حلت الأثرة والأطماع الشخصية محل كل هذا ، واستخذت أقيال العرب وشعوبها لسيطرة ملوك الأسبان الذين هيمنوا بقوة نفوذهم على شئون شبه الجزيرة من أطرافها .

ويكفى أن نذكر أن أبا عبد الله محمداً آخر ملوك بنى الأحمر

(١) ثار على الحكم بن هشام عماه : سليمان وعبدالله ابنا عبد الرحمن الداخل وسافر عبد الله إلى مقر شارلمان يستنجده ، فأمد الثائرين بجيش يقوده ابنه لويس حاكم أكوتين ؛ ولكن انتصر الحكم على الجميع ، فاسترد من الأفرنج ما احتلوه من المواقع ، وقتل سليمان فى إحدى المعارك ، وقبل الصلح الذى عرضه عبد الله ، وأجرى عليه راتباً يغنيه . وقد جرت كل هذه الحوادث بين عامى ٧٩٧ م ، ٨٠٢ م .

كيف هدي والد ولده؟

للاستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

كان لوزير هندى مسلم ابن يتعلم فى جامعة كيمبردج فى انجلترا ولم يكن يلم بتعليم الدين الإسلامى إلماماً تاماً وإن كان أبوه متضلعاً فى العلوم القديمة الإسلامية والحديثة الغربية والتصوف. فانتهز المبشرون الفرصة وأرادوا تنصيره ووجهوا إليه أسئلة كثيرة ضد الإسلام كما هو ديدنهم فى مثل تلك الأحوال لينالوا من منزلة الإسلام فى قلبه ويقربوه إلى النصرانية. فتجاذبته الظنون وتخالجت فى صدره من دينه الشكوك فوقع فى حيرة وارتباك فكتب إلى أبيه يسأله ويستشيره فى الأمر فرد عليه أبوه رداً أنقذ به ابنه الشاب من كيد المبشرين ومكرهم وهورد فصيح اللهجة، قوى الحجة، ملزم الحجة، يدل على عقل أصيل ولب رصين قال: أريد أن أشرح لك لماذا اعتبر الإسلام أحسن الأديان بأسرها؛ فلاحظ أنى لم أقل إن الأديان الأخرى رديئة بل إن الإسلام أحسنها؛ وذلك لأنها لا توافق الأفكار الحديثة العلمية كما يوافقها الإسلام. فإذا قلت فى وصف دين من الأديان إنه «حسن» أو «الأحسن» فأريد به المدى الذى إليه يبلغ ذلك الدين فى حث الإنسان بواسطة عقائده وتعاليمه على الجد فى طلب الفلاح لنفسه. كذلك إذا ذكرت هنا كلمة «علم» فأريد به العلم المرتب للاشياء المعلومة أو القابلة للعلم.

إن العلم يحسر اللثام عن الأشياء التى هى ضرورية أو مطلوبة لفلاح الإنسان والفنون عموماً تدله على الطريق الذى به يحوز تلك الأشياء أو يصنعها والحكومات تجعل أو ينبغى لها أن تجعل له التحقيقات العلمية والتقدم فى الفنون يسيرة الملتمس دانية القطوف. وأما الدين فينبغى أن يحرك الإنسان ويحرضه على الإستفادة من العلوم والفنون العصرية استفادة تامة. وقد يخطر ببالك أنه ما دامت الحكومة قائمة بواجبها والعلوم تترعرع والفنون تتقدم فلا حاجة هنالك للدين. فأقول إنك لو أخذت

والذى تم على يده تسليم غرناطة وإسدال الستار الأخير على مأساة الإسلام فى الأندلس، كان ابناً لأمير غرناطة السابق أبى الحسن على بن سعد بن الأحمر من محظيته الاسبانية إزابلا التى عرفت بين العرب باسم «ثريا» أو «الزهرة». وكان أبو عبد الله هذا أثيراً لدى أبيه بفضل حظوة أمه المسيحية؛ وبسبب ذلك انشق أخواه محمد ويوسف على أبيهما، وكان كلاهما ابناً له من «عائشة» زوجته الثانية العربية المسلمة.

ولقد كان اختصام أبى عبد الله فيما بعد مع عمه أبى عبد الله الزغل[1]، السبب المباشر فى سقوط غرناطة واثتلال عرش آخر حكومة إسلامية فى البلاد ...

لقد كانت النية التى عقدها ملوك الأسبان على طرد العرب صريحة؛ وكان مصير المسلمين أمام هذا الزحف الجارف واضحاً ومحتوماً؛ ولم تكن نجدات المرابطين والموحدين التى تحركت من أفريقية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر لتؤثر إلا فى تعويق حلول المأساة التى كان الجميع يشهدونها بعين الخيال، ويرون أنفسهم مسوقين إليها دون أن يستطيعوا لها دفعا. حتى لقد كان لسان الدين بن الخطيب وزير الغنى بالله محمد بن يوسف ابن الأحمر يوصى أولاده بعدم التوسع فى شراء العقار بالأندلس؛ ويصرح لهم بأن هذه البلاد أصبحت للمسلمين دار غربة!

وأعجب من هذا فى الدلالة على توقع المسلمين لمصيرهم المحتوم، ما قاله بعض شعرائهم إذ ذاك ... وكأنما كان يوحى إليه:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط؟

غفر الله لهؤلاء الأجداد الكرام زلاتهم، وجعلنا ممن يتعظون بمحنتهم، وألهمنا حسن التذكر لتاريخهم وسيرتهم «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين».

محمود عزت عرفه

---

(١) أسر أبو عبد الله محمد فى إحدى وقائعه مع الأسبان، ولما عاد الملك بعد أبيه إلى عمه أبى عبد الله الزغل أطلقوا سراحه لمناوأته، فاستولى بمعونتهم على غرناطة وأخرج عمه إلى وادى آش. ولم يلبث الزغل أن تنازل عن جبهة حكمه إلى فرديناند لقاء مبلغ من المال وانتقل إلى فاس فنقم عليه سلطانها وسجنه وعذبه حتى مات. أما أبو عبد الله محمد فبقى يدافع جيوش المسيحيين عن غرناطة حتى لم يبق من تسليمها بد، فهاجر إلى المغرب حزينا كاسف البال واستوطن مدينة فاس وبها مات عام ١٥٣٨ م

حصاناً إلى النهر فهو لا يشرب منه ما لم يكن ظمآن ، فإنه إن عطش يشرب من تلقاء نفسه فإن لم يعطش فلا منظر الماء الصافى ، ولا سهولة الوصول إليه ، ولا ترغيبك إياه ، ولا ضربك بالسوط يحمله على الشرب . كذلك العلم يقدر أن يريك الماء أو أى شيء آخر مفيد ، والفنون تستطيع أن تدلك على طرق حيازته ، والحكومة يمكن أن تكافئك بالجوائز أو تهددك بالعقاب ؛ ولكنك لا تشرب ما دمت لست بظمآن ، أو بعبارة أخرى إنك لن تستفيد من الأشياء المقدمة إليك أو الموضوعة تحت تصرفك إذا لم يكن فى داخل نفسك ما يدفعك لذلك . فهذا العطش ، هذا الدافع الباطنى الذى هو فى الحقيقة قوة محركة للانسان من ثمرة الدين وخليقته .

إن فائدة الدين العظمى هى الطموح الذى يوجده ويربيه فى الإنسان أن يعيش سعيداً صالحاً (١) . صحيح أن الداعى للسلوك الحسن لكثير من الناس هو خوف العقاب أو أمل الثواب سواء أكان عاجلا أم آجلا . وإن بعض الأديان ومنها الإسلام تقدم صورتين لامعتين للجنة وجهنم المعدتين للصالحين والطالحين بعد الموت ، ولكن عند الطباع العالية ذوات القوى القوية لا قيمة لتلك الدواعى (٢) فإنها مثل صوت السوط أو إراءة العشب للحصان الذى لا يجرى . فهى ليست مؤثرة أثراً ثابتاً مثل الداعى الروحانى العالى الذى يخلقه الدين الحق فى الإنسان للحياة الصالحة . إننى لا أقدر أن أشرح لك هذه النقطة أكثر من ذلك بغير الخروج عن الموضوع والدخول فى المباحث الفلسفية الدقيقة . لذلك يكفى أن أقول لك إن الداعى الدينى الروحانى خير من جميع الدواعى الأخرى للسير الحسن والحياة الصالحة . فإنه يعترف بروحانية الإنسان ويساعدها للاستيلاء على حيوانيته . قال الشاعر الفارسى :

آدمى زاده طرفه معجونى است
از فرشته سرشته واز حيوان
گر كند ميل اين شود كم از اين
ور كند قصد آن شود به از آن

وترجمته :

« إن الإنسان مركب غريب
قد ركب بالملكية والحيوانية
فإذا مال إلى الحيوانية اتضعت رتبته عنها
وإذا قصد الملكية ارتفعت منزلته عنها »

إنه الدين الحق الذى يمكن الإنسان من أن يفوق الملائكة فى الصلاح والتقوى وهو ما بينه السر أوليفرلودج أيضاً فى كتابه « جوهر الدين حليف العلم » فاقرأه .

ثم هناك فائدة أخرى للدين وهى أنك كثيراً ما تتوخى القيام بأعمال جمة ، ولكن لا تقدر على أن تقوم بجميعها وذلك إما أنك عدلت عن قصدك أو حال أحد دون قيامك بها . فما يهم الاجتماع ونفسك من رغباتك الجمة التى تفوق أعمالك هو أن تكون حسنة مثل أعمالك . ولا تقدر القوانين ولا التقاليد الاجتماعية على ضبطها ضبطاً صحيحاً لأنهما يختصان بالمظاهر الخارجية أى للأعمال الصادرة عن رغباتك ، وعواطفك ، وميولك الباطنية . فما يقدر على ذلك إلا الدين الحق مثل الإسلام الذى يحاسب على الرغبات التى تتحول إلى الأعمال حساباً كبيراً ، ويسعى فى قتل الرغبات السيئة فى مهدها أى قبل أن تتحول إلى الأعمال .

وعلى هذا فكل دين يقدر على أن يخلق فى الإنسان أحسن الدواعى للسير الحسن ، ويسعى فى إبادة الرغبات السيئة بكيفية مؤثرة فعالة لا بد من أن يوافق الأفكار الحسنة المعترف بها فى العصر عند العلم والفن . وذلك الدين عندى هو الإسلام (١) .

وأما موافقة الإسلام للافكار العصرية فيكفى أن أمثل لك مثالا واحداً فإن المجال والوقت لا يسمحان لأكثر من ذلك وهو أن الإسلام ادعى فى أول آية من السورة الفاتحة التى تحفظها أن هناك عوالم أخرى غير هذا العالم بقوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » ولا تزال هناك بعض الأديان تدعى أن لا وجود لعالم آخر غير عالمنا هذا ، ولكن العلم فى العصر الحاضر يدحض مثل تلك الدعاوى ويثبت وجود عوالم أخرى غير هذا العالم كما ذهب إليه

---

(١) أنا لا أعلم ديناً لم يأمر لعمل الخير واجتناب الشر كما لا أعتبر ذلك الدين ديناً الذى لم يأمر لعيشة سعيدة وحياة مرضية .

(٢) وهو ما فى مذهب الصوفية فإن الصوفى الخالص لا يبتغى بأعماله عوضاً غير الله .

(١) لأنه يخلق أحسن الدواعى للاستيلاء على زيغ الطبع الإنسانى الذى منه اشتكى القديس بولس حيث قال : بأن الخير الذى أنا أريد لا أعمله والشر الذى أنا لا أريد أعمله .

الإسلام ، ويقدم لنا الدلائل لليقين على أن كل نجمة تتلألأ فوق رؤوسنا في القبة الزرقاء حين يرخي الليل رواقه ويسبل ستره عالم معمور مثل عالمنا .

إن للدراية والخبرة عند الإسلام مصدرين : العلم والإلهام . فالأول يعبر عن جد الإنسان لمعرفة طرق الحق المستقيمة . والثاني يمثل نعمة الله بكشف سبله السوية للإنسان . فالفرق بين المصدرين فيما أرى مثل الفرق بين التجربة والوجدان ، أو بين الأفكار المكتسبة والأفكار الغريزية . وهو ما يعتبره فلاسفة العصر الحاضر أيضاً مثل سبنسر وبرجسون أنه فرق في الكم لا في النوع . والله يلهم كل فرد في كل لحظة من حياته ؛ بيد أنه يتوقف على الأكثر على الروحانية أو المقدرة الروحانية الناشئة عن مدى معرفته لله ولسبله السوية ، وتلك المقدرة يرث الإنسان شيئاً منها عن آبائه وأجداده ويكسب شيئاً آخر بالإيمان والإخلاص وبالأعمال الصالحة والسير الحسن .

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

« فلسطينيات » :

الضـــحية ...

للأستاذ نجاتي صدقي

رأيت مرة صديقاً يسير كئيبا حزينا ، فسألته الخبر ، فلم يجب بأكثر من كلمة .

— « وقعت » ... واختفى ...

فلم أفقه ماهية النكبة التي حلت به ، وعزوت ذلك لدين لم يتمكن من سداده ، أو لخلاف وقع له مع زوجته ، أو لمشكلة طرأت له في وظيفته ...

ثم غاب عن ناظري أسبوعين كاملين ، إلى أن رأيته يوما يجلس في مقهى من مقاهي « يافا » وأمارات البشر والحبور تبدو على قسمات وجهه .

— قلت له : لا بد أن يكون قد حدث لك حادث ، تحاول إخفاءه عني ، رأيتك مرة تسير كئيبا ثم اختفيت أسبوعين ثم ظهرت ثانيا مسرورا ، فما هي قصتك ؟ .

قال : أفقت مرة من نومي وأنا أحس بألم لا يطاق في ذراعي اليمنى ، وكانت أعصاب يدي متوترة ، وكنت أجد صعوبة شديدة في قبض أصابعي ، فحاولت أن أنزع لباس النوم ، فلم أستطع ، وأمسكت فنجان القهوة فسقط على الأرض ... ثم أردت أن أكتب شيئاً فلم تطعني أناملي ، ثم جاءني ولدي وطلب مني أن أبري له قلمه ، فلم يفعل السكين في القلم ... فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم وهرعت إلى الطبيب .

فلما رويت له ما حدث لي ، اهتم بالأمر وقال :

— المسألة في غاية التعقيد ... وأود قبل فحص جسمك أن أفحصك بالأسئلة التي ستنير لي سر مرضك ...

فسألني عن اسمي ، وعن اسم أبي وأمي ، وأين قضيت أيام طفولتي ، وأين نشأت وترعرعت ، وأي المدن سكنت ، وهل سبق أن أصبت بأمراض ، وما هي أنواعها ... وهل أعرف شيئاً عن أمراض بارزة في عائلتنا ... وهل قمت بأعمال جسدية يوما ما ، ثم ما هي طبيعة عملي الآن ، وهل أكثر من الكتابة أو المطالعة ... وهل أميل إلى التفكير العميق أو السطحي ، وأخيراً كيف أقضي ساعات الفراغ ، أأقضيها في المداعبات ... أم في التأملات ...

ثم فحص جسمي ، فجس نبضي وحلق في عيني ، وأنعم النظر في حلقي ، وقاس كتفي ، واستمع إلى رئتي ، ونقر على ظهري وبطني ، وسألني أن أتأوه ... ثم طرق ركبتي بعصا طرقاً خفيفاً فردتا عليه بحركات عنيفة ... ثم قال :

— كفى الآن ... اجلس .

فجلست أجمع ثيابي ، وجلس وهو يضع تقريره الطبي ، وبعد دقائق قال لي :

اسمع يا بني ... أنت مصاب بمرض عصبي عضال لم أر له مثيلا في حياتي . وأصارحك القول بأني لن أنصحك باستعمال أي دواء قبل تصوير ذراعك بأشعة رنتجن .

— قلت ولكن كيف تشخص هذا المرض على وجه التقريب ؟

— قال يغلب على ظني أنه « أوستيو ميليتوس » يتصل إما « بالبرا مليجيوس » أو « بالهيمبليجيوس » ! ...

ثم أخذ لى صورة بأشعة رنتجن ... وسألنى أن أعود إليه فى اليوم التالى ... فخرجت من لدن الطبيب وقد أظلمت الدنيا فى عينى ، فكان الناس يعبرون بى وكأنهم أطياف . ومرت بالقرب منى سيارة مسرعة ، فمن لى أن أحتك بها ! ... ثم اجتزت هضبة تطل على البحر ، فرأيت أمواجه تقهقه وتتحدانى ! ... لكننى تغلبت على مظاهر الضعف ، ولم أقنط من رحمة الله .

ولما عدت إلى الطبيب مرة أخرى ، أظهر لى الصورة ، وراح يشرح لى تفاصيلها بالقرب من النافذة ... فقال :

انظر ... هذه جمجمتك ... وهذه أسنانك ... باستثناء المخلوع منها طبعاً ... وهذه رقبتك ... انظر كيف يميل عمودك الفقرى إلى اليمين قليلا ... أما هذه الريشة فوقها غير طبيعى ، وأظن أنها هى التى تضغط على مجموعة أعصاب كتفك الأيمن وتسبب لك الآلام ... وعلى كل فهذا رأيى الخاص ... ولما كان الطبيب عادة لا يرتاح إلى رأى واحد فى القضايا الطبية المعقدة ، فأننى سأرسلك الآن إلى طبيب إخصائى فى الأعصاب ، ثم يجرى لك مشاورة طبية فوق العادة ...

وتركت عيادته وأنا فى حالة يرثى لها ، وأسرعت إلى الأخصائى فى أمراض الأعصاب الذى أرشدنى إليه الطبيب ، واسمه الدكتور رودلف روبنشتاين ، خريج معهد فينا الطبى فجلست إليه وكان يسألنى سؤالا فى الطب وعشرة أسئلة فى السياسة الفلسطينية ! ... ثم بدأ الفحص بعد أن ظهرت أمامه كما خلقنى ربى ، ووخزنى بإبرة فى أطراف أصابعى ... ثم مر بالإبرة أيضا على ظهرى ، ثم ربط جهازاً على ذراعى وضغط عليه ثم قال لى :

— تمدد على ظهرك ، وارفع يديك إلى الملاء ، فابسط أصابعك ... ثم أمسك بيدى وقال :

— دعنا نتجاذب بشدة ...

ثم أخذ يطرق جسمى بمطرقة خشبية صغيرة ، وكان ذلك خاتمة الفحص .

فقال لى وهو يقبض الجنيهات الخمسة :

أنت تشكو من اختلاط فى مجموعة أعصابك ... وأقترح عليك أن تستريح شهراً كاملا فى « كاليه » فى منطقة البحر الميت .

وعدت إلى البيت ، وأنا أفكر فى هذه المصيبة التى حلت بى ، فكنت أردد أقوال الطبيبين ، وأسم النظر فى صورة رنتجن ، وأطالع التقارير الطبية ، وأحاول إدراك كنه محتوياتها اللاتينية مستعينا بالقاموس الطبى ... إلى أن أضحيت أسير هواجس ، فانكمشت على نفسى واعتزلت الناس ، وعولت على ألا أعود إلى طبيبى الأول ، وألا أسافر إلى « كاليه » ... وفى إحدى الأمسيات خاطبت نفسى قائلا — لم لا تجرب حظك فى الدواء البلدى ؟ ... فنهضت للتو وقصدت جارتنا (أم حسين) وهى عجوز معروفة بوصفاتها البلدية وعرضت عليها ذراعى فامسكت به وتفحصته وقالت : أنت تشكو من قرصة هواء ! ...

قلت : وكيف ذلك ؟

قالت : لا تبحث فيما لا يعنيك ... وعليك أن تعمل حسب ما أوصيك به — خذ خمسة جرامات من المسحوق الفارسى ، ومثلها من بذور البطم ، وعشرة جرامات من الزنجبيل ، ومثلها من [illegible] ومثلها من روح الزرنيخ ، واسحقها كلها معا ، ثم اطبخها بالزيت ، واصنع منها لزقات ...

قلت ومن أين آتى بهذه العقاقير ؟

قالت — اطمئن فانا أجلبها من البلاد البعيدة بواسطة الحجاج ... ولك أن تثق بخبرتى ومهارتى ... والآن هات جنيهاً على الحساب ...

وبعد أن قضيت أسبوعين وأنا فى هذه الرحلة الشاقة بين الطب والوصفات البلدية ، ذهبت إلى صديق صيدلى ، ورويت له حكايتى فى جميع أدوارها ، فضحك وقال — لا تجزع ... يبدو لى أن مناخ البحر لا يلائمك ، وهذه رطوبة أحدثت فى ذراعك التهاباً ... إليك هذا المعجون وادلك به ذراعك دلكا خفيفا ثم لفه بالصوف على ثلاث ليال متواليات ، وعلى الله الشفاء .

قلت — وما ثمنه ؟

فاجاب فى شىء من التردد والخجل معاً :

— « شلن » واحد فقط ! ...

نجاتى صدقى

الشعر كصورة للجمال

للأستاذ نظمي خليل

أظن أن كثيراً من الناس الذين يقرأون الشعر يتساءلون ألا يوجد في الشعر شيء آخر غير الموسيقى والصور . ما هذا الجمال الذي نسمى وراءه ؟ ما رسالة الشعراء للعالم ؟ ما معنى القصيدة ؟ وربما زاد بعضهم فقال : ماذا يعلمنا الشعر ؟ .

فإذا اصطلح الناس على أن الصور الشعرية يجب أن تدرس من أجل لذة الاستيعاب نكون قد وصلنا إلى غايتنا ونترك هذه الأسئلة تجيب عن نفسها .

ولكن هذا القانون السقيم ، قانون الاختبار الذي ظهر في القرن التاسع عشر وهو المنفعة قد انحرف بالمثل العليا في الشعر وألزمه أن يؤدي لنا نتائج خاصة وآثاراً ملموسة يمكن للمستوعب إدراكها وتفهمها .

في الشعر الجيد كثير من الجمال الذي يجده في سائر الفنون السامية ، ولكنه جمال خفي غامض لا يمكن أن يعرض أو يشرح ، فلا تكاد الألفاظ تأخذنا إلى ذلك الجو السحري البعيد حتى نشعر أن وراء النظم نوعاً من ضوء الأحلام ليس موجوداً ولكنه سائر أبداً . يولد فينا إحساسات بأشياء غامضة لا يمكن أن يعبر عنها بالكلمات نفسها بل قد لا يحسها الشاعر نفسه .

ولكنا وإن كنا لا نستطيع الإفصاح عنها لا نرتاب في وجودها . فهي حقيقة موجودة كالحياة عينها .

أما أولئك الذين يعجزون عن الإحساس بهذه الكآبة الغامضة أو السرور الخفي الذي ينبعث من الموسيقى اللطيفة فقد تكون مشاغل الحياة قد صرفتهم عن ذلك فبلد إحساسهم وبرد قلبهم ، وصاروا يدلجون في الحياة وهم أبعد الناس عن الإحساس بها . فاليهودي أو رجل المال مثلا لا يشعر بها لأنها ليست شيئا يباع في الأسواق .

هذه الأشعار التي نحس ببهجتها الغامضة نعرفها بأنها شعر إلا أن النقد لا يستطيع أن يحللها أو يصورها في تعبيرات موسيقية أو صور . ولكن القلب يعرف أنها شعر لأنه شعر بها .

هذا هو الاختبار الأخير للشعر ؛ وهذه هي وظيفة الفنان لا يعنيه أمر العقل في قليل أو كثير لأنه لا يقدر موضوعات ولكن صورا تبعث فينا إحساسات خاصة ولكنها لا تحمل معنى يمكن أن يعبر عنه أو يشرح حسب القوانين العقلية .

فإذا فكر القارئ في الموسيقى بدلا من الشعر لا يصعب عليه فهم هذا . ولكن من سوء الحظ أننا فصلنا الشعر من سائر الفنون . وكذا نسي أن الموسيقى هي ابنة (أبولو) وليست ابنة (منيرفا) .

فالسؤال الآن : ما ذا يعلمنا الشعر لا يلقى إلا في مجتمع قد جعل الاختبار والعقل فوق كل شيء وغاية كل شيء .

الشعر لا يعلم ولكنه يلهم . فأولئك الذين يريدون أن يعلموا يجب أن يكون منطقهم واضحاً سليما ؛ ولكن جوهر الشعر الأصيل هو ما لا يمكن أن يفهم أو يعبر عنه بحجج العقل والمنطق . فالشاعر ليس مدرساً ولكنه رسول وكلامه غامض .

قال شيلي : « الشاعر كالبلبل الذي يجلس في الظلام ويصدح ليبدد وحشة وحدته بأنغامه الشجية ، والمستمعون إليه كأولئك الذين سحروا بنغم موسيقار متوافق ، فيحسون أنهم قد اهتزوا وطربوا ولكنهم لا يدركون متى ولماذا ؟ » .

أما الخطأ الشائع وهو أن تعاليم القصيدة يمكن أن تأخذ شكل القوانين والأصول فراجع إلى تلك التجربة الأسيفة المحزنة وهي شرح الشعر بالنثر أي نثره ، ولكن الشعر لا يمكن أن ينثر كما لا يمكن أن يترجم دون أن يفقد حياته .

أجل قد يأتي لنا المترجم بقصيدة جديدة لا تقل عن الأولى جمالا وروعة كما حدث في ترجمة بوب للإلياذة وفتز جرالد لرباعيات الخيام ، ولكن يجب أن نعترف أن هذه ليست شرحاً ولا ترجمة بل هي خلق جديد .

كل ما أخذ على النقد الردي هو أنه يعنى بالموضوع بدلا من الشكل .

وقد عاب « متيو آرنولد » « دكتور جونسون » لحكمه

الخاطئ على « ليسيداس » (مرثية ملتن لصديقه كنج) « إن أكبر غلطاته هو ظنه أنه ما من أحد يجد سروراً أو لذة في قراءة ليسيداس لأن معنى هذه القصيدة ليس حقيقياً وفكرتها قديمة » وقد وقع متيو أرنولد في نفس الخطأ عندما أعلن حربه على شيلي في قوله : « يعوزه شيء هام في الشعر لا يمكن أن يشتق منه وهو المادة » .

نريد أن نتحرر من هذا النوع من النقد مادام الشعر كغيره من الفنون الرفيعة غرضه المتعة والسرور العام .

فالشعراء يريدون أن يخلقوا ليشعروا لا ليفكروا . والنقد وهو المساعد الوحيد للخلق يجب أن يقوم بحثه لا ليجعلهم يفهمون التعاليم والقواعد ولكن ليريهم الفن ويتركهم يتمتعون به ويقفون على ما فيه من فائدة لأرواحهم لا لعقولهم .

ولقد شرح الألمان شكسبير فحللوا آراءه الدينية ونزعاته الفلسفية وتعاليمه الدينية والأخلاقية ومبادئه السياسية ، وجعلوا منه وحشاً مخيفاً فقالوا إن حلم « ليلة في منتصف الصيف حفلة حقيقية » .

ومن المحتمل أيضاً أن أغانيه صدرت عن تجربة عملية فقد قال دكتور جنسون وهو قول خاطئ من أساسه « إن شكسبير كان يعنى بأن يَسُرّ أكثر من أن يُعلّم ، وأنه كان يكتب بعيداً عن أى غرض أخلاقى » كذلك قال أمرسن « لقد أراد أن يعطينا صوراً وكان جديراً به أن يقدم لنا تعاليم » .

لم يكن أحد من الانجليز يفطن إلى هذا الاختبار حتى جاء به أرنولد من ألمانيا فقال « إن رسائل شيلى ستبقى بعد أشعاره الغنائية » .

ونجد كثيرين يكرهون كيتس ولا سيما جمهور الطلبة لعجزهم عن فهم أو شرح معانيه . فالجمال أو الخير الذى ننشده فى الشعر هو الخير الذى فهمه كيتس وعبر عنه بقوله « أوه . لا تتعب وراء المعرفة فليس لدى شيء ؛ ومع ذلك فإن أغنيتى تأتى وطنية بحرارتها . لا تبحث وراء المعرفة فليس لدى شيء ، ولكن المساء يصغى » .

دعنا نحاول أن ننقذ الشعر من أيدى المتحجنين الذين يعرضون على تلاميذهم شرحه وتفهم معانيه حتى تكون لنا دراسة واحدة للسرور والجمال الخالص .

إن رسالة الفن سر شخصى ليست محدودة المعنى .

فالقصيدة أو الصورة لها معنى خاص لكل فرد . وكل الشروح ليست إلا ظلالا لحقيقة واحدة ، فمعنى الخلق الفنى جميل موجود فى روحه مستقر فى روح صانعه .

فإخبارك الطفل بما يريد معرفته شيء جميل ، ولكن عدم إخبارك إياه قد يكون أجمل وأفضل ؛ فقد حدث أن كان طفل جالسا مع أمه يستمع فقال : « أمى . إنى أظن أنى أفهم إذا سكت هذا عن الشرح » .

قد يكون هذا قانونا بلا استثناء ، أى أن تبطل الشروح ما دامت لا تزيد فى المتعة والسرور بالكشف عن الجمال الفنى .

فالطفل يستطيع أن يتبين الجمال فى أغانى شوقى مثلا دون أن يعرف شيئاً عن شوقى ؛ فإن أساس المتعة هو الموسيقى ، فمن السخرية أن نحاول أن نلقى على الأطفال شروحاً عن حياة الشاعر قبل أن يتعلموا كيف يحبون الشاعر ويحبون شعره .

كيف يلذ للطفل أن يعرف أن حافظ ابراهيم ولد فى القاهرة ثم تعلم الجندية ثم ذهب إلى السودان ... قبل أن يقرأ أو يسمع أشعاره . أقول يسمع إذ ليس من الضرورى أن يقرأ الطفل الشعر ليقف على جماله . فقد يسمع القصيدة وهو يجهل معانيها بل يجهل ألفاظها جهلا تاما . ومع ذلك تراه يطرب ويحزن تبعا لموسيقاها :

ولقد قرأت مرة أن أحد الأساتذة الإنجليز جمع حوله بضعة أطفال ثم أخذ ينشد لهم شيئا من شعر هوميروس الحماسى باللغة الإغريقية فما لبث أن رأى الأطفال يهتزون ويطربون وينسجمون فسألهم عن معنى القصيدة فقالوا إنها وصف لمعركة ؛ ثم قرأ عليهم قصيدة أخرى فظهر عليهم الوجوم والحزن فلما سألهم عما فهموا قالوا إنها رثاء لقتيل .

فإذا كان هذا مبلغ تأثير الموسيقى فى الطفل الذى يجهل اللغة تماماً فأحرى بمدرسينا أن يتركوا أطفالهم يتمتعون بجمال الموسيقى وأن يفهموهم الشعر كصورة للمتعة والجمال .

نظمى خليل

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٨٣٥ — لذاك إذا دعاه لا يجاب

أمالى القالى : سمع الاصمعى رجلا يدعو ربه ويقول فى دعائه : يا ذو الجلال والاكرام ، فقال له الاصمعى : ما اسمك ؟ قال : ليث . فقال الاصمعى :

ينـاجى ربه باللحن ليث   لذاك إذا دعاه لا يجـاب

٨٣٦ — يشهد السمع أنها عوادة

رب ورقاء فى الدياجى تنادى   إلفها فى غصـونها المياده
فتثير الهوى بلحن عجيب   يشهد السمع أنها عواده
كلما رجّعت توجعت حزنا   فـكأنا فى وجدنا نتباده[1]

٨٣٧ — إخوة فيه للشفار الكليلة

البحترى :

إن تجرب بنى الزمان تجدهم   إخوة فيه للشفار الـكليله
والفتى كادح لفضلة دهر   يرتضيها أو عيشة ممطوله
خائف آمل لصرف الليـالى   والليـالى مخوفة مأموله
راح أهـل الآداب فيها قليلا   وحظوظ الأقسام فيها قليله
فعليك الرضى بمـا رضيته   لك هذى المطالب المجهوله
لن تنال المزوى عنك بتدبير   ولن تصعد السماء بحيله

٨٣٨ — فأنت حتى قذفتها

فى (الموشح) لأبى عبيد الله المرزبانى :

دخل العجاج على الوليد بن عبد الملك فأنشده :

كم قد حسرنا من علاة عنس[2]

(١) نتباده : نتبارى

(٢) (حسرنا) ساقه حتى أعياه كأحسره (العلاة) الزجمة فى السير لا ترى أبداً إلا أمام الركاب (العنس) الناقة الصلبة .

فصار إلى قوله :

بين ابن مروان قريع الأنس[1]
وابنــة عباس قريع عبس

فقال له الوليد : ما صنعت شيئا ، أنشدنى غير هذا فأنشده :

أمسى الغوانى معرضات صددا[2]
وقد أرانى للغـوانى مصيدا
ملاوة كأن فوق جلدا[3]

فقال : مصيدا وجلدا ، لم تصنع شيئا ، أفرغت مدحك فى عمر بن عبيد الله بن معمر إذ قلت :

حول ابن غراء حصان ، إن وتر[4]
فات ، وإن طالب بالوغم اقتدر[5]
إذا الكرام ابتدروا الباع بدر[6]

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لكل شاعر حمة[7] ، وكانت هذه الأرجوزة حتى قذفتها .

قلت : يقصد العجاج بحمته ما يقال له فى الفرنجى : chef d'oeuvre وقد قال بعض الفرنج :

un chéf d'oeuvre n'esthpas faitvil est né

وأرجوزة العجاج[8] هذه (٤٥٩) بيتا ، مطلعها :

« قد جبر الدين الإله فجبر[9] »

(١) (قريع القوم) : سيدهم .

(٢) صددا : ناحية .

(٣) (ملاوة) — مثلثة — مدة من الدهر (الجلد) أن يموت ولد الناقة فتمنع درها فيؤخذ فصيل فيحشى تبناً وهو البو ، فيوضع بين يديها فتشكره بمينها ، وترأمه بقلبها فتدر (المرزبانى)

(٤) وترت الرجل قتلت حميمه فأفردته (الأساس) كل من أدركته بمكروه فقد وترته .

(٥) (الوغم) : الثأر .

(٦) (الباع) : الشرف ، الكرم ، فى الأساس : من المجاز لفلان سابقة وباع .

(٧) حمة الشيء — بضم الحاء وتشديد الميم — شدته ومعظمه من الحم الحرارة ومن حمة السنان وهى حدته . والحمة — بالضم والتخفيف — لوعة السم أي حرارته وفورته وحمة البرد شدته وفى رواية : « إن لكل شاعر غربا ، وإن غربى ذهب فى ابن معمر » والغرب الحدة والنشاط ، غرب الفرس واللسان حدتهما .

(٨) فى (مجموع أشعار العرب) المطبوع فى أوربة سنة ١٩٠٣ م « اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد البروسى » .

(٩) جبرت الشيء فجبر هو ، لازم متعد .

٨٣٩ — أفضل نعيم أهل الجنة

فى (ميزان الاعتدال) للذهبى :

… عن أبى الدرداء قال : كان رسول الله يذكر الناس ، فجاء أعرابى فقال : هل فى الجنة سماع ؟ .

قال : يا أعرابى ، إن فى الجنة نهرا جمل فيه الابكار … يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها ، وذلك أفضل نعيم أهل الجنة .

فسئل أبو الدرداء : بم يتغنين ؟ قال : بالتسبيح إن شاء الله .

٨٤٠ — يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

أحمد بن أبى بكر الكاتب :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرىء   نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك عن بغض لها غير أنه   يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

٨٤١ — التقليد

فى (الحيوان) للجاحظ :

داء المنشأ والتقليد داء لا يحسن علاجه جالينوس ولا غيره من الأطباء … وتعظيم الكبراء، وتقليد الأسلاف وألف دين الآباء، والإنس بما لا يعرفون غيره يحتاج إلى علاج شديد ، والكلام فى هذا يطول .

إرشاد الأريب لياقوت :

قال الشينيزى للماوردى : أيها الشيخ اتبع ولا تبتدع .

فقال : بل أجتهد ولا أقلد .

٨٤٢ — وسواس الرجل يحدث وسواس الرجل

قال أبو الجوزاء : طلقت امرأتى فى نفسى وأنا فى المسجد ثم انصرفت إلى منزلى ، فقالت لى امرأتى : أطلقتنى يا أبا الجوزاء ؟

قلت : من أين لك هذا ؟

قالت : خبرتنى جارتى الأنصارية .

قلت : ومن خبرها بذلك ؟

قالت : ذكرت أن زوجها خبرها بذلك .

فغدوت على ابن عباس فقصصت عليه القصة فقال : علمت أن وسواس الرجل يحدث وسواس الرجل ، فمن هنا يفشو السر .

٨٤٣ — اغترب تتجدد

أبو تمام :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق   لديباجتيه فاغترب تتجدد

٨٤٤ — كذاك الضر بين الضرتين

أمالى القالى :

قيل لأعرابى : من لم يتزوج امرأتين لم يذق حلاوة العيش، فتزوج امرأتين ثم ندم فأنشأ يقول :

تزوجت اثنتين لفرط جهلى   بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت أصير بينهما خروفا   أنعم بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجة تضحى وتمسى   تداول بين أخبث ذئبتين
رضا هذى يهيج سخط هذى   فما أعرى من احدى السخطتين
وألقى فى المعيشة كل ضر   كذاك الضر بين الضرتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى   عتاب دائم فى الليلتين !

٨٤٥ — عظيم

ســـد الطريق على الزما   ن وقام فى وجه الخطوب

٨٤٦ — بطون جحا

فى (أساس البلاغة) للزمخشرى :

قيل لجحا : على من خالاتك ؟

قال : على أبى واخياتى …

يضرب فى من قوته على الضعيف .

٨٤٧ — الجديد والقديم

محمد بن نصر الأوسى :

وإن كان عندى للجديد لذاذة   فلست بناس حرمة لقديم

٢ — من الأدب الغربي :

مسلة تتحدث (*)

للأستاذ محمد رجب البيومي

[في الأدب الفرنسي خاصة روائع خالدة عن مصر ؛ وهذه قصيدة عصماء لتيو فيل جوتييه نظمها على لسان مسلة مصرية قائمة بميدان الكونكورد بباريس ونحن ننقلها بتصرف يقتضيه الذوق العربي] .

تحت صوب الحيا وذوب الجليد   أقفُ الآن في الْتياعٍ شديد
زأر الجوّ فوق رأسي كطاغٍ   مستبد بكل من في الوجود
تصرخ الريح بين كفّيه رعباً   وتصيح الرعودُ تلو الرعود
ويمر السحاب تحت سماء   كأسير مكبّل بالقيود
تمس الجوّ ! صار ثلجاً ببار   يس وقد كان جمرة في الصعيد
حيث كانت أختي ترفّه عني   بحديث كخمرة العنقود (٢)
إذ يميس النخيل في سندس العشـ   ـب كخود تجرّ وشي البرود
إذ يهبّ النسيم في كلّ فجر   ناشراً في الربوع عطر الورود
وذكاء الوضيئة الوجه تسطو   فوق هام الربا بخطو وئيد
يا لأوقاتها ! تولّت وكانت   مشعل النور في الليالي السود
كخيال سرى ، وحلم توارى   كسراب يلوح فوق البيد

إيه رمسيس قد تحطم صرحٌ   أبديٌّ أقمته للخلود ... !
المسلاّت - يالخزيك - كانت   في ربوع الحمى كبُرج مشيد
طالما قد حميتها بحصونٍ   من رماح وجحفل من أسود
فثنى الدهر نحوها وهو ليث   صنع الله قلبه من حديد
فإذا جيشك العظيم يولي   وجهه في استكانة الرعديد
كيف هذا ؟ حقيقةٌ أم خيال   يا سماء ارجفي ! ويا أرض ميدي

قد تربّعتُ فوق لحد رهيب   كان للأبرياء شرّ اللحود (٣)

(١) من ديوان « ألحان غربية » تحت الطبع .
(٢) أختي تريد مسلة الأقصر .
(٣) تأقيمت المسلة في مكان مقصلة لويس السادس عشر .

وقف العدلُ في نواحيه يبكي   بدموعٍ تحزّ في الجلمود
كم قتيل بدون ذنب جناه   وشهيد مضى وراء شهيد
والمنايا تطيع أمر (لويس)   كل يوم تقول : هل من مزيد (١)
وأخيراً أتت عليه فحزّت   من قفاه العريض حبل الوريد
قُتل الموت ! كم أذلّ عزيزاً   كان ذا سطوة وبأسٍ عتيد

انظر « السين » حائر الموج يعلو   في اصطخاب كالهائج العربيد
يتهادى وفيم هذا التهادي ؟   وهو مرّ المذاق رنْق الورود
ليس كالنيل حين تصقله الشمـ   ـس فيبدو كاللؤلؤ المنضود
ماس بين المروج مؤتلق الوجـ   ـه كتاجٍ على الربا معقود
جعل الأرض روضةً يتغنى   فوقها كل صادحٍ غرّيد
من رسولي إليه في مصر يُهدي   ه تحيات قلبي المعمودِ
كل شيء له بريدٌ ولكن   آه للنيل ! ماله من بريد

كنت في مصر — وا حنيني إليها —   ذات مجد يذيب قلب الحسود
يقصد الناس خاشعين لمحرا   بي وكلٌّ يهم لي بالسجود
وأنا اليوم قطعة من صخور   وقفتْ في الطريق مثل العمود
الرعاع الطغام حولي سكارى   كقطيع مشرّدٍ في البيد
يقصلون الخنا بوجه من الصخر   وقاحٍ لا يستحي من وجودي
كم بغيّ تسير خلف زنيم   يشتري طهرها بحلو الوعود
يقطع الوقت في التذاذٍ أثيم   بين شهدِ اللمى وورد الخدود
(قاب بولُنْيا) مذبح شهويّ   كم هوت فيه كل حسناء رودِ
أين منه مصرُ التي قد تعالى   كل صوتٍ بطهرها المحمود
قد جعلتِ العفاف يامصر تاجاً   يتجلى على رءوس الغيد

أين مني حمى رعٍ وأمونٍ   هل سيبدو لناظري من جديد
وعويل الكهّان في غسق الليـ   ـل كثكلى على ضريح فقيد
والتماثيل في المعابد يجثو   عندهما كل سيّدٍ ومسود
والنواقيس صادحات كطير   ساحر اللحن بارعٍ الترديد
والقبور الضخام كالهرم العا   لي سطورٌ خُطّت بسفر الخلود
ما بباريس مثلها وهي كنز   ذهبيٌّ يضم كل فريد
أنت يامصر منيةُ المتمني   دُمتِ في نعمةٍ وعيش رغيد

(١) لويس السادس عشر



قصة من الأدب الروسي الرفيع :

« الملاك ... »

للفيلسوف الروسي الكبير ليو تولستوى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

— ٢ —

ولم يكادا يفرغان من الطعام ، ويقومان عن المائدة ... حتى أقبلت « مترونا » على « الضيف الغريب » ... تسائله :

— « من أى البلاد أنت ؟ ! » فأجابها فى صوت شاعت فيه الوداعة « لست من هذه البقاع ! ... »

فقالت دهشت « ولكن . ما الذى رمى بك إلى الطريق ؟ ؟ »

— « لست أدرى . ! . »

— « أتعرض أحد لك بسوء ؟ ! . »

— « كلا ! ... لقد عاقبنى الله تعالى ! ... »

— « أما كنت ملقى على قارعة الطريق ؟! ... »

— « بلى عريانا ومثلجاً ، وقد لحق زوجك الكريم « سيمون » فأدركته الرحمة فخلع ما عليه ، وألبسنى إياه ، وأحضرنى هنا ... فأطعمتنى من جوع ، وآويتنى من برد ... وأشفقت على من التشريد والموت ... فجزاك الله خيرا » .

فنهضت « مترونا » وأحضرت له بعضاً من ثياب زوجها القديمة ... وأعدت له مناماً على كثب من التنور يقضى فيه ليلته

باتت « مترونا » فى مضجعها تتقلب فلم يزر جفنيها الكرى وما فتئت ذكرى « الغريب » تراود مخيلتها ...

بدا لها كيف أتى على نصيبهم الأخير من الخبز ... فلم يدع لهم شيئا إلى الغد ... فأحست بالحزن يساور نفسها — والألم يتغلغل فى قلبها ... بيد أن تلك البسمة التى رفعها إليها « الضيف الغريب » جالت فى صفحة فكرها وجلبت السكينة إلى نفسها وقالت تحدث زوجها فى خفوت ، وقد كادت أن تأخذه سنة من النوم : —

« سيمون ! ... » فأجابها فى توجس وضيق : « ماذا ؟! »

— « لقد أتينا على آخر ما عندنا من الخبز ... ولست أدرى ما الذى نفعله غداً ! ! ليتنى أستعير بعضاً من جارتنا « مارثا ! ... »

— « إذا امتد بنا الأجل إلى الغد ... فسوف نرزق من حيث لا ندرى ! ... »

فلبثت المرأة برهة لا تنبس ... ثم قالت فى رقة « يخيل إلى أنه رجل طيب كريم ، ولكن ما الذى يحمله على الصمت فلا يكشف لنا جلية أمره ؟! . »

— « أحسب أن لديه علة تمنعه ! . »

— « سيمون ! . »

— « نعم !. »

— « علام لنا نعطى ! وليس ثمت من يتفضل علينا بعطاء » فحار سيمون جواباً ... ثم لم يلبث أن قال لها : — « دعينا من هذا الحديث ! ... » وانقلب على جانبه ... وراح يغرى بعينيه النوم بعد أن جفاه . !

* * *

وفى الغداة ... أفاق « سيمون » من نومه ، وكانت الأطفال تعيث فى البيت صياحاً ولهواً ، وانطلقت زوجته لتسأل جارتها بعضاً من الخبز ... أما الغريب فكان يجلس على مقعده — فى ثياب سيمون الخلقة — يرمى طرفه إلى السماء — وفى عينيه توسل ورجاء ، وقد عاد إلى وجهه بهاؤه وضياؤه من البارحة ...

فقال « سيمون » فى طلاقة وصرح : « هه ! ... أيها الصديق ... إن السغب يدعو الإنسان إلى السعى وراء القوت ، والعرى يضطره إلى طلب الملبس ... فعليه أن يعمل ويكد ... فما الذى تعرفه من المهن ؟! . »

— « لست أدرى شيئاً ! . »

فقال سيمون فى صوت ملء بالدهش .

— « إن كان للانسان رغبة فى التعلم فسيتعلم ؟! »

— « وإن لى نفسى رغبة إلى ذلك . ! »

— « ما ذا تدعى ؟ ! ... »

— « ميشيل ... »

— « حسناً يا ميشيل ... إن لم تكن فى نفسك رغبة إلى أن تحدثنا عن نفسك ، فهذا من شئونك ... غير أنه يجب أن تتكسب رزقك ، فإن عملت بما سأشير عليك به ..! فسوف تجد عندى طعاماً طيباً ، ومأوى حسناً ... »

— « جزيت خيراً ... وإنى لمطيع لما تقول ! ... »

— « إن ذلك غاية فى البساطة ... فانظر إلى . » ثم أمسك « سيمون » بخيط ، ولفه حول إبهامه وراح يجدله فى براعة ... فراقبه « ميشيل » ثم أخذ قطعة من الخيط وثناها على إبهامه وانفك يجدلها كما فعل سيمون وفى براعته وإجادته ، وعلمه سيمون كيف يشمع الخيط ويقطع الجلد ثم يخيطه ... فبرع « ميشيل » فى كل ذلك ... حتى أصبح ماهر البنان كأنه مارس تلك الحرفة طيلة حياته ...

كان لا يبرح يعمل ويعمل دون توقف ، ولا يطعم غير القليل ، حتى إذا ما انتهى من عمله ، جلس صامتاً يحدق فى سماء الغرفة وفى عينيه ذلك الرجاء وذلك التوسل ! ولم يكن يخرج إلى الطريق ، بل يظل حبيس الدار ، وعين العمل ، لا ينطق إلا بكلمات قلائل يضطر إليها ... وما ضحك يوماً ، وما ارتفع لسانه بفكاهة ... ولم ترتسم على وجهه ابتسامة أبداً ، إلا تلك التى أضاءت على جبينه يوم أن قدمت إليه « مترونا » العشاء ... !

* * *

وتتابعت الأيام وتعاقبت الشهور ... وميشيل يعيش ويعمل جهده مع « سيمون » ... وجرى إسمه على كل لسان ، وطبقت شهرته كل مكان ... حتى طفق الناس يأتونه من كل صوب وفج بمعاملته ... حتى ازدهر حاله ، وزال عنه بؤس الحياة وعسرها .

كان « سيمون » وميشيل يعملان ذات يوم حينما جلجلت بباب دارهم الأجراس فأسرع كل منهما إلى النافذة ، يستجلى الأمر ... فأبصرا بعربة « زلاقة على الثلج » يجرها ثلاثة من الجياد المطهمة الصافنة ... تقف بباب الدار ، وخف تابع إلى بابها ففتحه ... فظهر منه سيد جليل مهيب — عليه جبة من الفرو الثمين — ووقف بباب الكوخ ، فبادرت « مترونا » إليه تفتحه على مصراعيه ، وترحب بمقدم الضيف الجليل فطأطأ الرجل رأسه عند ولوجه الباب ... فلما انتصبت قامته المشوقة كاد أن يمس رأسه سقف الغرفة فنهض سيمون وانحنى إجلالا للضيف وقد سرى إلى نفسه الدهش ... فما رأى مثل هذا الرجل فى عظمته ورفاهيته فقد كان سيمون هزيلا نحيفا ، وميشيل صعدا رقيقاً ... كما أن « مترونا » كانت ضاوية الجسد ، جافة العود ...

أما هذا السيد ، فيخيل لمن يراه أنه من عالم آخر وجنات مكتظة مليئة ... ووجه مطهم شاعت فيه الحمرة الوردية ، وجسد زهم كالفيل فى هيئته وبدانته ، وعنق أقد كعنق الثور وما أن جلس على المقعد حتى قال « من منكم صاحب العمل ؟! » فدنا منه سيمون وقال فى صوت أضعف من الرهبة « أنا يا صاحب السعادة !! »

فصاح السيد بتابعه « هيا ... أحضر الجلد ... يا « فدكا » فلما أحضره ، ووضعه على المائدة ... قال السيد مشيراً إليه : — « أنظر أيها « الأسكاف » أترى هذا الجلد ؟ . »

— « أجل يا صاحب السعادة ... إنه أثمن جلد رأيته فى حياتى ! . »

— « أبمقدورك أن تصنع لى حذاء منه ؟! »

— « أجل يا صاحب السعادة ! . »

— « أتستطيع ؟! حسناً ... فلا يغب عن بالك لمن سوف تصنع هذا الجلد الثمين ... استمع ... ينبغى أن تجعل لى منه حذاء أحتذيه عاماً كاملا ... لا يبلى ولا يخلق . أفهمت إن لم يكن بمقدورك هذا ، فصارحنى ... فإنى أود حذاء أحتذيه عاما بأكمله ... وإنى لأحذرك الآن وإلا فسوف يكون مستقرك السجن وإذا لم يبل فى مدى عام ... فسوف أمنحك عشر روبلات نظير ذلك ... »

فارتعدت فرائص « سيمون » وعجز عن الكلام ... والتفت إلى « ميشيل » ووكزه قائلا فى همس وحسيس « أنأخذ هذا العمل على عاتقنا ؟! » فأومأ « ميشيل » برأسه موافقاً ... فانفرجت أسارير « سيمون » وسرى عنه همه وجزعه ... وراح يقيس قدم السيد ... يتعرف مسيها ويقدر أخمصها ... ويسجل ذلك على وريقة تعينه على صنع الحذاء ... فلما انتهى من ذلك

قال له السيد وهو يجول طرفه فى أرجاء الكوخ .

— « لا تجعلها تضيق بقدمى ! . » ··· فلما وقع طرفه على « ميشيل » قال فى تساؤل :

— « من هذا ؟ ! »

— « إنه عامل عندى ··· وسوف يتشرف بخياطة حذاءك »

فتحدث السيد الجليل إلى ميشيل قائلا « أنت يا ذا ··· لا يغيب عن بالك أنى أود حذاء مريحاً ··· يمكث عندى سنة ··· هه ··· سنة بأكلها ! . »

***

نظر « سيمون » إلى « ميشيل » ··· وكان هذا يحدق فى ركن من الغرفة فوق السيد ··· وقد شرد خياله عما هم فيه ···

. وكان يحدق ·· ويحدق ، وعلى غرة ارتسمت على ثغره تلك الابتسامة العذبة ، وأشرق وجهه وأضاء ··· فزجر السيد قائلا :

— « فيم تحملق أيها الأبله ؟! خير لك أن تنظر إلى ما يدر عليك رزقك ! . »

فقال سيمون « سيعد لك الحذاء يا صاحب السعادة ··· فى الحال ··· » فنهض السيد وهم بالخروج والغضب يحمر فى عينيه ، واستقر فى عربته فانطلقت تجلجل أجراسها ··· فلما اختفت فى منعطف الطريق ··· قال سيمون — وما زال الدهش يسيطر على نفسه — « هذا مثال لإنسان جبار ··· لا يقتله المرؤ ولو بمطرقه ··· وأحسب الموت يتخوف من جبروته ··· فلا يمس له جسداً ! . » ثم حدث ميشيل قائلا :

« حسناً لقد أخذنا على عاتقنا أن نصنع حذاء له ··· ولكن ينبغى ألا يكون ذلك سبباً فى متاعب جديدة ·· إن الجلد ثمين وإن صاحبه لجاد فى طبعه ··· فيجب ألا نخطئ معه هيا ··· يا ميشيل ، إن عينيك أدق من عينى ، ويديك أبرع من يدى ، فهاك الجلد ، فقطعه حسب المقياس ··· وسوف أخيطه أنا ! . »

فبسط « ميشيل الجلد على المقطع ثم طواه طية واحدة ··· وراح يقطعه بالأزميل ···

كانت « مترونا » ترقبه فى عجب ودهش ··· فقد طالما رأت كيف تحذى النعال وأدركت أن « ميشيل » لا يقطع الجلد على طريقة الأحذية ··· بل لشيء آخر لا تعرفه هى ، فقالت فى نفسها « لعلى لا أعرف شيئاً عن صناعة الأحذية للسادة والأشراف ! . وأحسب أن ميشيل يعرف المزيد عنها ··· سوف لا أتطفل عليه ! . »

فلما فرغ ميشيل من القطع ··· أمسك بخيط واحد وراح يخيط الجلد — كأنه من الخفاف — لا بخيطين كما تخيط الأحذية فعاد الدهش إلى « مترونا » من جديد ··· غير أنها أمسكت عن تدخلها ···

ومكث ميشيل يعمل حتى وافت الظهيرة ··· وقام سيمون يلق نظره إلى ما أتمه ميشيل ··· فلم يلبث أن راعه ذلك وقال فى أحبيج وعجب : « آه ! . كيف تفعل هذا يا ميشيل ؟ ! لقد لبثت معى سنة بأكلها — لم تأت أثناءها بخطأ قط فكيف تقع فى هذه الغلطة التى ستوردنا مورد الهلاك ! . لقد قال إلينا السيد أنه يود حذاءاً . وها أنت قد جعلت له من جلده الثمين خفاً ··· سوف يثير حنقه علينا ·· وما فى قدرتنا أن نأتى له بجلد مثله ··· لقد حطمت حياتى يا ميشيل ! . »

فما وفيما هو يملك ألفاظاً من التوبيخ والعتاب ··· حتى سمعوا طرقاً على الباب وأبصروا من النافذة رجلا يترجل عن جواده ويربطه فى حلقة الباب ··· ففتحت له « مترونا » ··· وكان ذلك الرجل هو التابع الذى صحب « السيد الجليل » فى الصباح ··· فقال لهم : « لقد بعثت بى سيدتى فى أمر الحذاء ! . »

فقال سيمون فى جذع :

— « ما ذا عن الحذاء ؟! »

« إن سيدى ليس فى حاجة إليه !. فقد مات . ! »

— « هه ! . أحقاً هذا ؟ ! »

— « أجل ··· لقد دهمه الموت وهو فى مركبته ! . فلما بلغنا المنزل ··· جاء الخدم يعاونونه ··· فقد حرجت جثته على الأرض كالكيس المثقل ··· وقد بعثت بى سيدتى لأقول لكم إن السيد الذى أتاكم هذا الصباح ليس بحاجة إلى الحذاء ··· بل ينبغى أن تعجلوا بعمل خف لجثته ··· كى أحمله إليها الآن . »

فقام ميشيل ··· وضم بقايا الجلد إلى الخف بعد أن مسحه بمئزرته وسلمه إلى الخادم الذى انطلق به قائلا : « وداعاً أيها السادة ! ··· »

***

كرت السنون ··· وها هو ذا ميشيل يعيش عامه السادس

مع سيمون وعائلته لم يتحول عما درج عليه ... ولم يتغير شيء من طبعه ... لا يخرج أبداً من الدار ... ولا يتحدث إلا بمقدار ولم يرتسم الابتسامة على شفتيه إلا مرتين لا تتلوهما أخرى ...

واحدة حينما تفضلت عليه « مترونا » بالطعام ... والثانية حينما كان يحدق فى ركن من الغرفة فوق « السيد الجليل » وكان سيمون على وفاق مع عامله . ولم يسأله يوماً من أين أتى بل كان فى خشية من أن يرحل ميشيل عنه ...

وبينما هم جميعاً فى الدار ذات يوم ... وكانت « مترونا » تضع إناء على النار ، والصغار يمرحون فى لهو وعبث ، وسيمون جالس يخيط حذاء فى يده ... أما ميشيل فكان مستغرقاً فى عمله على كثب من النافذة ...

ووضع أحد الأطفال يده على كتف ميشيل . ونظر من النافذة وصاح قائلا :

« أنظر ... ياعم ميشيل ، هناك سيدة معها بنات صغيرات يظهر أنها تريد دارنا إن واحدة من البنات تعرج فى سيرها ! » فألقى ميشيل بما معه وسارع ينظر من النافذة إلى الطريق ... فتعجب سيمون ، فما رأى « ميشيل » يوماً ينظر إلى الطريق فى هذه اللهفة ... فدعا ذلك سيمون إلى أن ينظر هو أيضاً كى يستبين ذلك الشيء الذى أثار ميشيل . فرأى سيدة حسنة الهندام تتجه حقاً إليهم وتقود طفلتين عليهما أردية من الصوف وشمائل من الفرو ... يعجز المرؤ عن أن يميز إحداهما عن الأخرى إلا تلك التى يعترى ساقها اليسرى شيء من العرج .

وولجت السيدة بطفلتيها الغرفة ... وقالت فى صوت رقيق

— « سعدتم صباحاً ... أيها القوم الطيبون ؟ . »

فقال « سيمون » :

— « سعدتى صباحاً ... سيدتى الفاضلة .. ماذا فى مقدورنا أن نعمله لك ؟ ! »

فجلست السيدة على مقعد ... وقد التصقت بها الطفلتان فى خوف ممن فى الكوخ .

— « أود ... حذاءين من الجلد لهاتين الطفلتين ، للربيع ! ... »

— « إننا لم نصنع من قبل مثل هذه الأحذية الصغيرة ... غير أننا قادرون على ذلك ... إن مساعدى « ميشيل » أستاذ صناع فى هذا ! . »

وألقى سيمون بنظرة إلى ميشيل ... ليرى أثر الإطراء والثناء عليه ... فوجد هذا جالساً يحدق فى الطفلتين الصغيرتين فانتاب سيمون العجب ولولاه الدهش ... حقاً كانت الطفلتان جميلتين لهما وجنات وردية وشعر معقوص وعيون نجل ... ترتدى كلتاهما ثياباً فاخرة من الصوف والفراء ... بيد أن سيمون لم يفطن إلى سر تحديق ميشيل إليهما كأنه يعرفهما من قبل !

كان فى حيرة من أمره ... فانطلق يحدث السيدة ويقدر الثمن معها ... وبعد مساومة وإقرار ... هم أن يأخذ مقياسهما فقالت السيدة وهى ترفع قدماً للبنت العرجاء « إن هذه القدم عرجاء فاعمل لها حذاء على حدة ... أما القدم الأخرى وقدمى الطفلة الثانية ... فهى صحيحة متشابهة وحجمها واحد ... إنهما توأمتان ... »

فسجل سيمون ما قاسه على وريقة صفراء ... وقال يحدث السيدة :—

— « ما الذى حدث لها ؟! فأصابها بهذا العرج ... إنها تبدو جميلة ... أو ولدت هكذا ؟ ! »

— « كلا ... فلقد حصرت أمها قدمها فالتوى ... »

فتعجبت « مترونا » وتساءلت من تكون هذه السيدة ؟ ! ومن تكون هاتان الطفلتان ... فقالت فى صوت شاع فيه ما يجول فى نفسها من دهش .

— « ألست أمها إذن ؟ ! »

— « كلا ... يا سيدتى الفاضلة ... لست أمها ، ولست إحدى قريباتهما ... لقد تبنيتهما ... »

فزاد عجب « مترونا » وهى تقول :

— « ليستا طفلتيك ... وتحبينهما هذا الحب ؟! »

— « ليس لى حيلة فى ذلك ؟! أطعمهما وأربيهما ... ولقد رزقنى الله ولداً ولكننى احتسبته ... وما كنت أحسبه مثل حبى هاتين الطفلتين ! .

وطفرت من عينها دمعة حارة ... تألقت فى مقلتها ... ثم لم تلبث أن انحدرت على وجنتها ... فمسحتها فى هدوء وحزن فقالت مترونا فى أسف وتأثر : —

— « معذرة ... ما كنت أحسب أن هذا يجلب إلى نفسك الحزن والألم ... ولكن من هى أم هاتين الطفلتين ؟ . »

« البقية فى العدد القادم »

مصطفى جميل مرسى

الكتب

كتب من مراكش :

موقف الأمـــة المغربية من الحماية الفرنسية

للأستاذ عبد الكريم غلاب

عادت حركة التأليف إلى نشاطها بعد انتهاء الحرب ، وقد حمل إلينا البريد أخيرا عدة كتب سنقدم بعضها إلى قراء الرسالة .

والكتاب الذى نقدمه اليوم إلى القراء هو « موقف الأمة المغربية من الحماية الفرنسية » وقد جمعت هذا الكتاب وأصدرته جريدة « الوحدة المغربية » التى تصدر فى تطوان . والكتاب مؤلف من عدة أبحاث نشر بعضها من قبل فى جريدة الوحدة المغربية ومجلة « السلام » وقد اشترك فى كتابة هذه الأبحاث الأستاذان : محمد المكى الناصرى ، ومحمد حسن الوزانى . كما يشتمل الكتاب على تقرير هام أرسله المرشال ليوطى حينما كان مقيما عاما فى مراكش إلى حكومته سنة ١٩٢٠ يشرح فيه وجهة نظره فى نظام الحماية ، وكيف يجب أن يطبق فى مراكش .

وموضوع هـذا الكتاب ، كما يظهر من عنوانه تاريخى سياسى يصور فترة من تاريخ مراكش الحديث ، وهى الفترة التى وقعت فيها هذه البلاد تحت الحماية الفرنسية . ويبدأ الكتاب بشرح المؤامرات الدولية التى كانت تحاك ضد مراكش قبل سنة ١٩١٢ ، ويعنى خاصة بالميثاق الذى عقد بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ ، وبمقتضاه تنازلت انجلترا لفرنسا عن (حقها) فى مراكش فى مقابل تنازل فرنسا لانجلترا عن (حقها) فى مصر . كما يشرح لنا الكتاب الظروف التى أملت المعاهدة التى عقدت بين فرنسا وألمانيا سنة ١٩١١ ، وفيها صرحت ألمانيا بأنها لا تعرقل مساعى فرنسا فى السيطرة على مراكش . وإلى جانب ذلك قامت فرنسا بمساع أخرى على حدود البلاد سمتها هى — بمنطقها — اضطرابات داخلية وعا أنها مسؤولة عن حفظ النظام فى مراكش المستقلة ، فالمصلحة تقتضى أن تزحف على مدينتى وجدة وفاس عاصمة مراكش لتحافظ فيهما على الأمن . كان ذلك سنة ١٩١١ ، وما كادت تحل سنة ١٩١٢ حتى تردد فى أنحاء العالم أن فرنسا تعد مشروع معاهدة بينها وبين مراكش . ثم رددت جوانب القصر الملكى فى فاس أن سفير فرنسا مسيو (رينو) يتردد على جلالة السلطان مولاى عبد الحفيظ ، وأنه يعرض عليه مشروع معاهدة الحماية ، وأن جلالته قد وقع تحت ضغط ديبلوماسى وعسكرى وتحت تهديدات السفير الفرنسى ، ومع ذلك فهو ممانع بل يعلن للسفير أنه سيتنازل عن العرش إذا هو أجبره على إمضاء المعاهدة . ويشرق يوم ٣٠ مارس فإذا بفرنسا تعلن أن جلالته قد وقع عقد الحماية ، وأنه بمقتضاها قد أباح للجنود الفرنسيين أن يحتلوا مراكش كلها حتى يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم كاملا فى تنفيذ الإصلاحات التى نص عليها فى المعاهدة . وتمر بضعة شهور فإذا بجلالة السلطان يعلن لأمته أنه لم يستطع أن يؤدى واجبه فى المحافظة على استقلال البلاد التى أقسم اليمين عند توليته على المحافظة عليه ، وأنه لذلك يتنازل عن العرش ويترك الأمر للأمة لتختار من يخلفه على عرش أجداده .

وهنا تنتهى مأساة فرض معاهدة الحماية لتبتدىء مأساة تنفيذ هذه المعاهدة . وتجند فرنسا جيشا من الموظفين الاستعماريين الفرنسيين وعلى رأسهم المرشال ليوطى ليقوموا بحكم مراكش حكما مباشرا ، وليسلبوا الحكومة المراكشية كل ما أبقت لها المعاهدة من سلطة فيديروا شئون البلاد ويتركوا هيئة الحكومة فى سبات عميق ، بعد ما كانت هيئة حكومية منظمة تنظيما ديمقراطيا تشرف على إدارة مراكش وتسير بالبلاد نحو التقدم المادى والمعنوى تحت رياسة جلالة السلطان . ويبدأ الفرنسيون فى تنظيم حركة استعمارية ، فيكونون داخل مراكش مجالس استشارية للفرنسيين يرأسها المقيم العام . ويقوم هؤلاء الفرنسيون بوضع برامج الإدارة والإصلاح فى مراكش وينفذونها هم بأنفسهم وبذلك يكون الفرنسيون مصدر السلطة التشريعية والتنفيذية .

وهكذا يحكمون مراكش دون أن يشركوا أهل البلاد الشرعيين فى أى عمل يتصل بالتشريع أو الإدارة وبذلك يكونون حكومة دكتاتورية باسم الحماية .

هذه السلطة التى اغتصبها الفرنسيون هى التى مكنتهم من حكم البلاد حكما استعماريا متطرفا يقوم على سلب الأراضى من الفلاحين المراكشيين بدعوى المصلحة العامة ، وإعطائها الفرنسيين الذين يهاجرون من بلادهم ليضعوا لأممهم نقطة ارتكاز فى الأرض الجديدة (مراكش) .

تلك صورة مختصرة لأبحاث الكتاب التى اشترك فيها كل من الأستاذين المكى والوزانى ، وقد اعتمد الكاتبان فى عرضهما لسياسة الحماية الفرنسية على كتب وتصريحات لكبار الفرنسيين الذين درسوا موضوع الحماية درسا قانونيا وواقعيا . وبذلك اشتمل الكتاب على نصوص كثيرة — تنشر لأول مرة فى اللغة العربية تؤيد وجهة النظر المراكشية فى اعتداء الحماية على وضعية البلاد التى اعترف بها فى معاهدة الجزيرة سنة ١٩٠٦ وهى الاستقلال التام . كما اعتمد الكاتبان على هذه النصوص فى بيان أن معاهدة الحماية مخالفة للقانون الدولى ، وللمعاهدات التى عقدت بين الدولة المراكشية المستقلة والدول الأجنبية التى منها فرنسا . وقد بينا أيضا — معتمدين على هذه النصوص — أن تطبيق معاهدة الحماية كان مخالفا لنصوص المعاهدة نفسها ، بل للحماية كما يعرفها القانون الدولى . وفى الكتاب كذلك نصوص قيمة فى تحليل معاهدة الحماية ، وبيان ما تشتمل عليه من غموض وتناقض ومغالطات .

غير أن إعجابنا بالكتاب لا يمنعنا من أن نلاحظ عليه بعض الملاحظات نلخصها فى النقط الآتية :

١ — من الخلاصة التى عرضناها فى هذه الكلمة نلاحظ أن العنوان لا يطابق موضوع الكتاب ، فلن تجد فيه شرحا لمراحل الجهاد المراكشى ضد الحماية الفرنسية . وإذا استثنينا الصفحات القليلة التى كتبت عن موقف السلطان عبد الحفيظ من الحماية الفرنسية ، فلا تجد ذكرا لموقف الأمة المراكشية من هذه الحماية .

٢ — فى الكتاب نصوص كثيرة وخاصة فى بحث الأستاذ الوزانى ، ولكن الكاتب لم يستطع أن يستفيد من هذه النصوص القيمة ، بل حشدها حشدا كان يكتفى به أحيانا عن التعليق أو الاستنتاج .

٣ — وفى الكتاب خلط غريب يذهب بقيمته العلمية ، فالظاهرة العامة الواضحة فى الكتاب هى عدم التنظيم ، ووضع الكتاب فى وضعه الحالى لم يكن مستندا إلى منطق ، ولا إلى ترتيب تاريخى . ولعل هذا هو ما جعل الموضوع الواحد يتكرر فى الكتاب عدة مرات ، وجعل الكاتب يتناول موضوعا واحدا فى صفحات متفرقة تفصل بينها مباحث أخرى ، كما نرى فى « تحليل معاهدة الحماية » فقد تناوله الكاتب فى الصفحات ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٤ .

٤ — ويتصل بهذه الملاحظة عدم ذكر المراجع فى كثير من أبحاث الكتاب وخاصة عند دراسة الموضوعات المهمة كنظم الدولة المراكشية قبل الحماية ، وخلع السلطان عبد العزيز لتفريطه فى حقوق الأمة ، وتولية السلطان عبد الحفيظ بعد أن أقسم اليمين على احترام شروط البيعة . كما يتصل بذلك أيضا كثرة العناوين التى هى أجدر بالتهريج الصحفى منها بكتاب علمى ، وركاكة الأسلوب الذى ترجمت به النصوص الفرنسية .

٥ — ولعل أخطر ملاحظة هى أن الكتاب لم يتعرض لموقف اسبانيا مطلقا ، مع أن المعروف أن مراكش تقع تحت النفوذين الفرنسى والأسبانى . وأن اسبانيا شريكة لفرنسا بموافقتها على معاهدة الحماية ، واحتلالها الجزء الشمالى من مراكش بمقتضى هذه المعاهدة نفسها . والذين يعرفون الموقف السياسى للأستاذ المكى يدركون سبب هذا النقص الخطير فى الكتاب .

٦ — وفى الكتاب نزعة حزبية ظاهرة ، فقد نشر سنة ١٩٤٦ ، وفى يناير سنة ١٩٤٤ وقعت أخطر حركة سياسية وطنية فى مراكش ضد الحماية الفرنسية ؛ فقد اتحدت جميع الأحزاب والهيئات الوطنية فى منطقة النفوذ الفرنسى تحت اسم جديد هو (حزب الاستقلال) ووضع الحزب وثيقة طالب فيها باستقلال مراكش وإنهاء عهد الحماية . وبذلك وضعت مراكش أول حجر فى صرح الاستقلال ومرت البلاد بأخطر تجربة فى تاريخها الحديث . ومع ذلك لم يتحدث الكتاب عن هذا الدور من « موقف الأمة المغربية من الحماية الفرنسية » إلا فى سطر أو سطرين . وتلك ظاهرة غريبة تمليها حزبية عمياء كنت أرجو أن يبرأ منها كتاب ينشر عن القضية المراكشية .

عبد الكريم غلاب